

الدولة العثمانية والمغرب العربى

تأليف
أ.د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة القاهرة - فرع الفيوم



بنادق عثمانية (من العصر العثمانى)

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية



عُملات ذهبية وفضية ضرب طرابلس

فى العهد التركى العثمانى

الإشراف الفنى

محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر

حسام حسين أنيس

٩٦١,٤

ع ب د و

عبد المنعم إبراهيم الجميعى.

الدولة العثمانية والمغرب العربى/ تأليف عبد المنعم إبراهيم الجميعى. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧.

٦٨ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الحديث والمعاصر؛ ١٢).

ببليوجرافية: ص٦٦-٦٧.

تدمك: ٦- ٢١٤٨- ١٠ - ٩٧٧.

١ - الدولة العثمانية والجزائر. ٢- الدولة العثمانية وليبيا.

٣- الدولة العثمانية وتونس. ٤- الدولة العثمانية ومراكش.

أ - العنوان. ب - السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٨٨٠٢

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

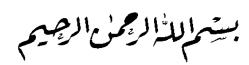
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



مقدمة

لا شك أنه يهم كل مـواطن عربى أن يلم بأحـوال أى جزء من وطنه الكبير، وأن يتـعرف على أحوال مواطنيه، وظروفـهم السياسية والاقـتصادية والاجتماعية.

وعلى الرغم من أن لبـلاد المغرب الـعربى منزلة خـاصة فى الـقلوب؛ نظرا لأنهم أحفـاد المجاهدين الأوائل الذين لهم ماض عريق، ودور فعال فى أحداث العالم الإسلامى فإن الكتابة فى تاريخ المغرب العربى خـلال الحكم العثمانى لا تزال جـد قليلة خاصة فى المراكز العلمـية بالمشرق العربى. فلا تزال الجامعات ومراكز البـحث الأساسية بها لا تولى تاريخ هذه البلاد الاهتمام الذى يستحقه رغم أهميته فى مسار السياق التاريخى للعالم العربى.

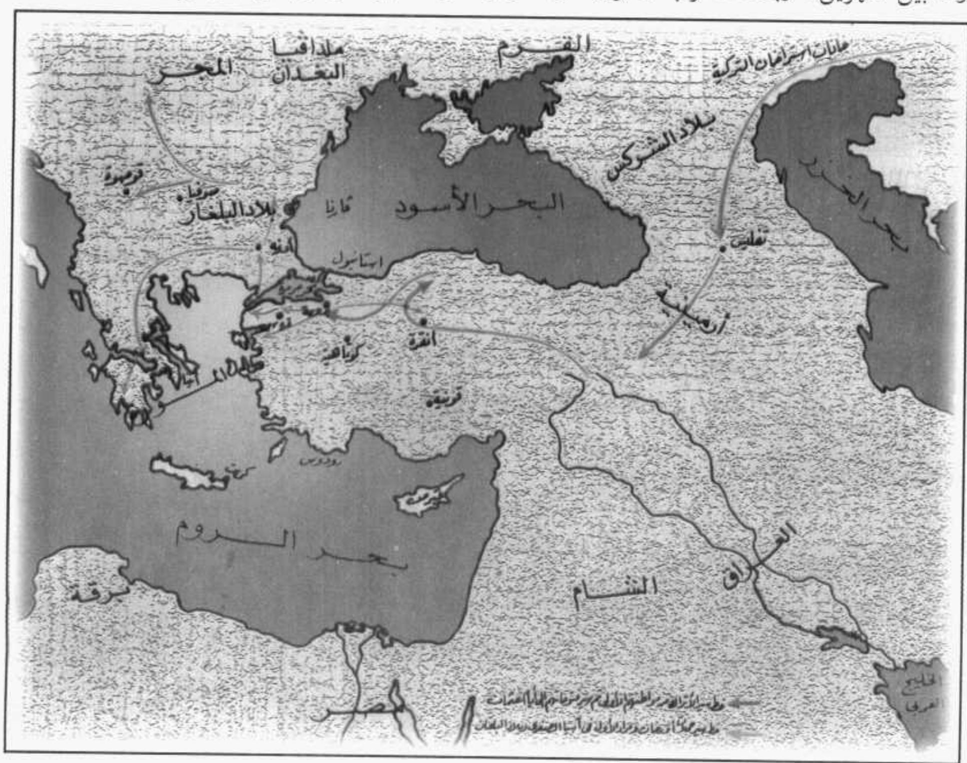
حقيقة أن الفتح العـربى لشمال أفريقيا فى القرن السابع الميلادى قد حـقق الوحدة السياسية لهذه المنطقـة لأول مرة فى تاريخهـا إلا أن هذه البلاد تعـرضت للعديد من المخاطر وخـاصة من إسبانيـا المجاورة التى كان يساندها فى ذلك فرسـان القديس يوحنا، لدرجة أن الإسبـان استطاعوا السيطرة على النقـاط الرئيسيـة من سواحل المغرب الأوسط إلى أن تدخل العـثمانيـون لإنقاذ هذه البلاد ووضعوا حدا للتدخل الإسبانى فيها.

قد يتـساءل البعض عن أصل الأتراك العـثمانيـين والسبب الذى دفعهـم لمد سيطرتهم على بلدان المغرب العربى؟

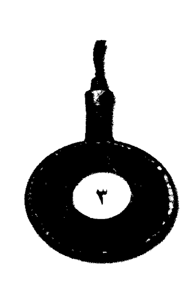
الواقع أن الروايات تختلف حـول أصل الأتراك العثمـانيين، وإن كان العـديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل «الغز» التى كانت تقطن أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولى صوب آسيا الصغـرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميـلادى. وقد استجاب السلطان «علاء الدين» لطلب هذه القبيلة بمنحها مكانا تستطيع العيـش والاستقرار فيه فأقطعها عدة أقاليم ومـدن، وصار يعتـمد عليها فى حـروبه. وظلت هذه القبيلة بـقيادة «أرطغرل» فى خـدمة السلطان عـلاء الدين. ولما توفى «أرطغرل» تولى ابنه الأكـبر عثـمان مكانه وهو الذى تنـسب إليه الدولة العثمانية.

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد وذاع صيته، ثم انفتح المجال أمامه بعد سقوط دولة سلاجقة الروم، ووفاة السلطان علاء الدين فاستقل بما تحت يده من بلاد واتخذ من مدينة «ينى شهر» عاصمة له، ودعا نفسه بسلطان العثمانيين.

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه، واعتنق العثمانيون فى عهده الإسلام، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية. وبعد وفاة عثمان فى عام ١٣٢٦م واصل ابنه «أورخان» ومن جاء بعده السير على سياسته. واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوروبا وأفريقيا وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوروبا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود، وألبانيا، وبلغاريا، والمجر والبغدان وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان، وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين، وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس.



خريطة بداية تكوين الدولة العثمانية



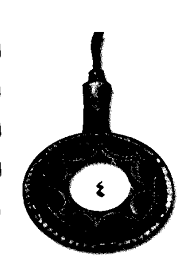
وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك فى مجال الحرب أم فى مجال السلم. وقد توالى على عرشها ستة وثلاثون سلطانا كان منهم من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن، وكان منهم بين بين، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد فى النهاية على دك أركان هذه الدولة، وظلت الفتوحات العثمانية تتجه غربا حتى عهد السلطان «سليم الأول» (١٥١٢-١٥٢٠م) الذى اتجهت الفتوحات العثمانية فى عهده نحو الشرق حيث تمكن من مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية.

وفى عهد السلطان «سليمان القانونى» (١٥٢٠-١٥٦٦م) وصلت حدود الدولة إلى معظم بلدان المغرب العربى - عدا مراكش - بهدف إنقاذه من هجمات الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بملاحقة المسلمين هناك، واستطاعوا وقف هجماتهم، وتخليص هذه البلاد من سطوتهم.

والجدير بالذكر أن فتوحات العثمانيين للشام ومصر جاءت من منطلق التنافس وسوء العلاقات بينهم وبين المماليك، أما بالنسبة لبلدان المغرب العربى وبالذات الجزائر وليبيا حدثت بناء على طلب الأهالى الذين طالبوا الدولة العثمانية، بتخليصهم من الهجمات الصليبية ضد بلادهم وقد تم لهم ما أرادوا وتحولت مسئولية الجهاد هناك من الجهود الفردية للمجاهدين إلى مسئولية أكبر دولة إسلامية وقتذاك لديها العديد من القوات البرية التى تتميز بالنظام والانضباط، هذا بالإضافة إلى أسطول قوى بذلت الجهود العديدة لتشييده لمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين.

ويعد الجزائر أول قطر عربى يدخله العثمانيون، ويتخذون منه قاعدة لمد سيطرتهم على طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس فى محاولة منهم للحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمال أفريقيا من أخطار الغزو الاستعمارى الأوروبى وتكوين جبهة إسلامية لمواجهة أخطار الزحف الصليبى. أما بالنسبة لمراكش فإنها لم تدخل تحت السيادة العثمانية نتيجة لتمسك الأشراف السعديين بإبعاد النفوذ العثمانى عن بلادهم، ولقدرتهم فى المحافظة على استقلال بلادهم من أطماع الإسبان حتى أوائل القرن العشرين.

وقد نجحت الدولة العثمانية فى المحافظة على المقومات الأساسية لبلدان شمال أفريقيا، وهى الدين الإسلامى، واللغة والثقافة العربية والإسلامية وإبعاد الزحف الاستعمارى عن هذه المناطق لفترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون، وتبعا لذلك فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول **تناول الفصل الأول** المعنون «الجزائر تحت الحكم العثمانى» جهاد الجزائريين لإنقاذ بلادهم من



الهجمة الصليبية، وطلبهم النجدة من أكبر دولة إسلامية فى ذلك الوقت وهى الدولة العثمانية واستجابة السلطان سليم الأول العثمانى لطلبهم، ودخول الجزائر تحت الحكم العثمانى، والارتكاز عليهم لتحرير باقى مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان، كما تناول هذا الفصل نظام الحكم العثمانى فى الجزائر وأحوال هذه البلاد الاقتصادية والثقافية خلال هذه الفترة.

وتناول الفصل الثانى المعنون «ليبيا فى ظلال الحكم العثمانى» استنجاد أهل طرابلس بالسلطة العثمانية لحمايتهم من أخطار الهجمة الصليبية الشرسة ضد بلادهم، وموافقة السلطان سليمان القانونى على طلبهم، ونجاح القوات العثمانية فى طرد فرسان القديس يوحنا من ليبيا وجعلها قاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط، كما تناول هذا الفصل أحوال ليبيا الاقتصادية ومظاهر الحياة الثقافية خلال فترة الحكم العثمانى.

وتناول الفصل الثالث المعنون «تونس تحت الحكم العثمانى» الصراع المرير الذى دار بين العثمانيين والإمبراطورية الرومانية المقدسة والذى كان يحكم باسمها وتحت حمايتها «الحسن الحفصى» حتى تمكنت الدولة العثمانية إعلان تبعية تونس لها، كما تناول هذا الفصل أحوال تونس الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثمانى لها.

أما الفصل الرابع المعنون «العثمانيون ومراكش»، فقد تناول أسباب بقاء مراكش خارج السيطرة العثمانية وتمكنها من الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية بعيدا عن العثمانيين والإسبان. أما الخاتمة فقد شملت أهم نتائج هذه الدراسة.

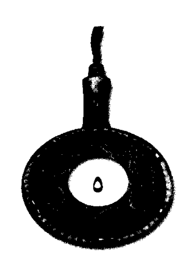
وأخيرا، آمل أن أكون قد وفقت فى إلقاء الضوء على تاريخ المغرب العربى الحديث فى ظل الحكم العثمانى، وأن أكون قد تمكنت من إضافة شىء جديد للمكتبة التاريخية.

والله ولى التوفيق،،

أ.د. عبد المنعم الجميعى

الإسكندرية - زهراء العجمى

سبتمبر ٢٠٠١





بعد سقوط الأندلس فى يد القوى الصليبية، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على شمالى أفريقيا، وطمس عروبة أهالى هذه البلاد وتنصيرهم.

وقد وقف أهالى هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين «عروج» وأخوه «خير الدين بربروسا»، و«حسن باشا» و«صالح ريس» وغيرهم، فقد كانوا مثلا أعلى فى البطولة والفداء فى المعارك التى خاضوها ضد التكتلات الصليبية التى أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل «عروج» ذاع اسمها بين الأهالى بعد أن حقق أمانيهم فى استرداد الموانى التى نجح الإسبان فى الاستيلاء عليها، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها الاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جهود مراكب الجهاد التى كانت تجاهد القوى الصليبية فى البحر المتوسط.

ونتيجة لاستشهاد عروج فى إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان، فقد تولى شقيقه «خير الدين بربروسا» Barberoussa أى صاحب اللحية الحمراء أمور الجهاد. ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه وخاصة أنه كان فى حاجة إلى العتاد والسلاح، فقد استنجد بالدولة العثمانية وهى وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب فى خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته فى شرق أوروبا، ولها من أسباب القوة، وخاصة بحريتها النامية فى شرق البحر المتوسط ما مكنها من اقتحام حلبة الصراع الصليبى فى الحوض الغربى من البحر وتبديل مصائره لصالح الإسلام والمسلمين. فأرسل «خير الدين» وفدا إلى السلطان «سليم الأول» برئاسة «أبو العباس أحمد بن القاضى» الذى اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية فى الجزائر، وعرض أبعاد القضية عليه، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان وخصوصا أن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان فى السواحل الجزائرية.

وبعد أن وصل الوفد إلى إسـتنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السـيادة العثمـانية، وأرسل إلى «خير الدين» فـرمانا سلطانيا منحه لقب باشا، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبة «بكلربيك» أى أميـر الأمراء وهو من أعظم ألقـاب الدولة، كمـا أرسل إليه ألفـين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر، وسمـح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين، يضاف إلى ذلك أنه أعطى «خير الدين» لقب قبـودان وهو رتبة عـسكرية تمكنه من قيادة الأسـاطيل العثمـانية، وتمنحـه العديد من الاختصـاصات العسكرية التى تجعله قـائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده. ونتيـجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية، وتحـقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم



إحدى معارك عروج وخير الدين بربروسا

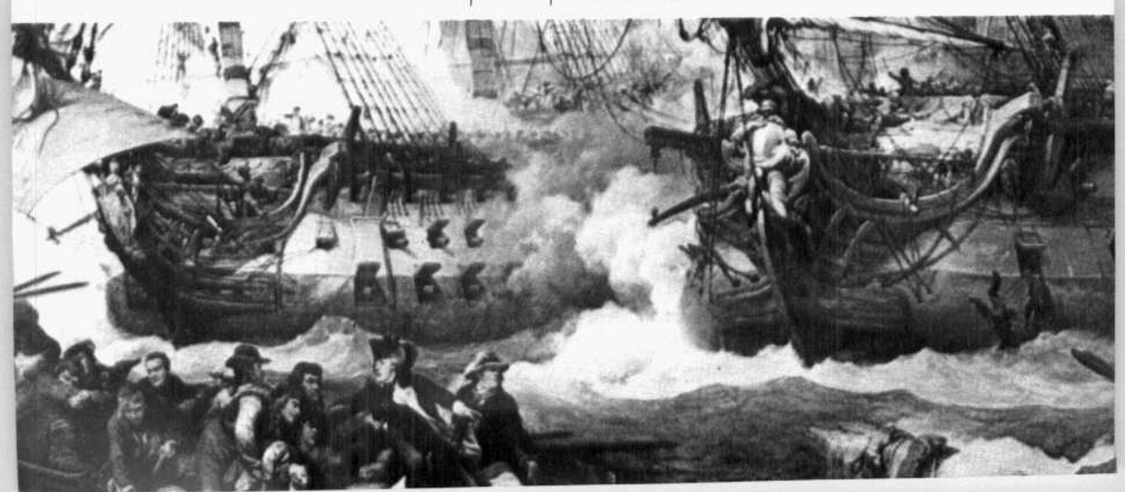


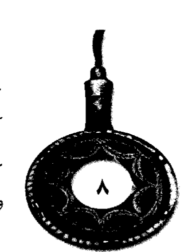
السلطان سليم الأول

الإسباني على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثماني في شتى أنحاء بلاد الغرب، وإلى جانب ذلك فقد نودي على منابر مساجدها باسم السلطان العثماني، وصارت العملة تسك باسمه.

وقد قام «خير الدين» باستحداث بعض التنظيمات التي تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثماني كما تمكنه من التصدي للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلي لأبنائها حيث قسمها إلى قسمين: قسم شرقي يشمل المناطق الجبلية التي تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ «أحمد بن القاضي» وقسم غربي يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بني زيان ووضع على رأسه السيد «محمد بن علي»، في حين ترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة، وكان على رأسها «خير الدين» الذي حكم البلاد حكما شوريا، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر، كما كون مجلسا من كبراء رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شئون البلاد، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم.

معركة ليبانتو عام ١٥٧١م





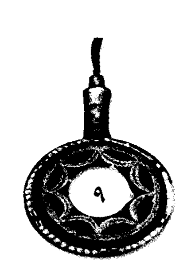
وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثمانى فى اجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها باءت بالفشل، كما برزت قدرة «خير الدين» فى التصدى للأسطول الإسبانى الذى وصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غنم على أثره العديد من السفن، وأسر بعض ملاحيها.

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا فى شمالى أفريقيا، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإسبانى عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة فى التراخى وقنع السلطان العثمانى بمظاهر السيادة فقط مادامت تستطيع تلك الولايات أن تحفظ كيانها من الضغط الأجنبى بوسائلها الخاصة، وقنعت الدولة بالتضامن الإسلامى العام الذى كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء. وقد يرجع أسباب تراخى سلطة الدولة العثمانية فى الجزائر إلى بعد المسافة التى تفصل بينها وبين عاصمة الدولة، وإلى ضعف البحرية العثمانية وخاصة بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة «ليبانتو» عام ١٥٧١ ،ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها فى مواجهة الدول الأوروبية، كما لجأت الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر والتى كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية فى حربها ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد «خير الدين» والعثمانيين فسعى سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد «خير الدين» والوجود العثمانى فى الجزائر، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع «خير الدين» هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه فى غرب الجزائر. أما فى شرق الجزائر، فقد حاول الحفصيون إثارة المشاكل ضد «خير الدين» ولكنه تمكن من تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التى انتهت بانتصاره وتوسيع دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات الميزاب الموغلة فى الصحراء، كما تمكن خير الدين من توجيه الضربات للسواحل الإسبانية.

وإلى جانب ذلك فقد اهتم «خير الدين» بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما يدفعه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغانم البحرية، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان.

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان، وتهدد مواصلاتهم كما ظلت بمثابة الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والقاعدة التى ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان.



ونتيجة لانشغال «خير الدين» بقيادة الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط تولى نائبه «حسن أغا» إيالة الجزائر وأخذ يتصدى لقوات الإمبراطور «شارل الخامس» التى عملت على إيجاد تحالفات مع بعض الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بنى حفص، وبنى زيان وبعض مشايخ القبائل، كما أخذ يتصدى للحملات العسكرية التى أرسلها الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر.

وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائر فى مواجهة الإسبان وأتباعهم؛ ففى الداخل عمل على توطيد الأمن وإلى التفاف الأهالى حوله. كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح فى إخضاع القبائل هناك. وإلى جانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية، وأثار الرعب بين سكانها. ففى جمادى الأولى ٩٤٦هـ/ سبتمبر ١٥٣٩ أقلع بأسطوله المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألفا وثلاثمائة رجل نحو جبل طارق، ونجح فى احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم، كما توغل فى جهات الساحل الإسبانى الجنوبى وغنم العديد من المتاع والأسرى. كل ذلك دفع الإمبراطور «شارل الخامس» إلى محاولة الاستيلاء على الجزائر، وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق. فعرض على «خير الدين» حكم شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وخاصة أن «خير الدين» أبلغ السلطان العثمانى بالأمر. ونتيجة لذلك أعد «شارل الخامس» حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر، وتمكنت من الاستيلاء على مينائها والالتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف، مما أصاب أهل البلاد بالهلع. وفى أعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإسبانى يطلب من «حسن أغا» التسليم، ولكنه رفض، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجل. ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتاحت شواطئ الجزائر، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فسد خلالها مفعول البارود الذى فى حوزة الإسبان، كما اقتلعت الرياح خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ، وهجم عليها المدافعون المسلمون، واستولوا على ذخائرها.

وفى وسط هذه الأهوال نجح «حسن أغا» فى مفاجأة العدو، والالتفاف حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسبانى فى مهاجمة مدينة الجزائر وخاصة أن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن فى حسبانه. وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها، مما أجبر المهاجمين على الانسحاب، وكان له أبلغ الأثر فى ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين، مما دفع السلطان العثمانى «سليمان القانونى» إلى منح «حسن أغا» وأعوانه العديد من الألقاب والنياشين.

وبعد وفاة «حسن أغا» فى رمـضان ٩٥٢هـ/ نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم الجـزائر «حسن بن خـير الدين بربروسـا» الذى تمكن من التـصدى للتكتـلات الصليـبيـة، ومنعهـا من احتـلال مدن السـاحل فى وهران، والمرسى الكبـير، وبجاية . وذلك بفضل مهارته فى الأمور الحربية البرية والبحرية، كما عمل على تنظيم إيالته إداريا وعسكريا، فقام بالقـضاء على تمرد القبائل القاطنة فى المناطق الغـربية من الجـزائر، وتنظيم الجيش، وتحـقيق الانضـباط فـيه ومع ذلـك فإن



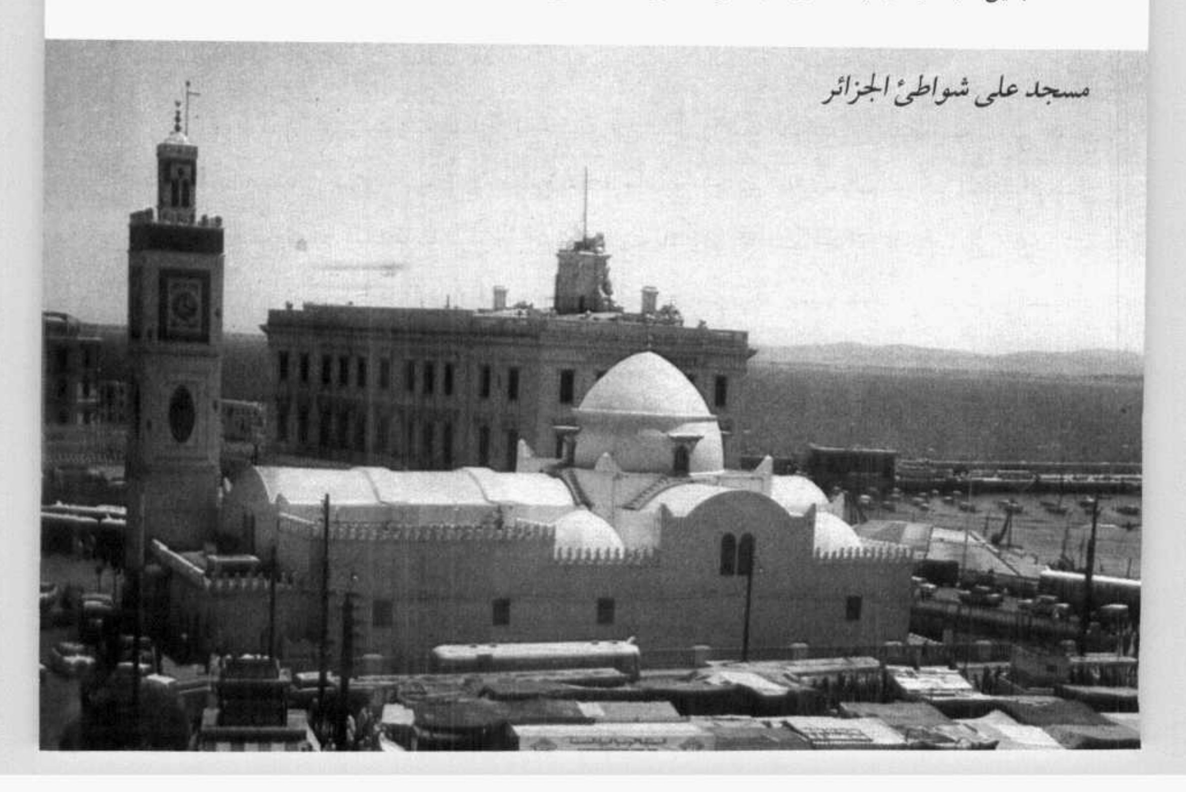
خير الدين بربروسا



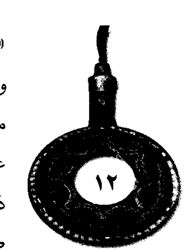
المؤامرات التى حيكت ضد «حسن باشا» لدى السلطان العثمانى أدت إلى عزله من منصبه وتولية «صالح ريس» حاكما على الجزائر فى محرم ٩٥٩هـ/ يناير ١٥٥٢م. وقد عمل «صالح ريس» على تأمين إيالة الجزائر من الداخل والتصدى للحكومات المحلية المتعاونة مع الإسبان ومن أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حد لهذه الأمور، ونتيجة لتركز فكرة الجهاد الإسلامى فى ذهن «صالح ريس» فقد قام بمحاصرة سواحل الإسبان، وعمل على إيجاد جبهة إسلامية موحدة فى المغربين الأوسط والأقصى لمحاربتهم، كما نجح فى إنهاء حكم الأسرة الزيانية فى تلمسان، وضم هذه المنطقة إلى إيالة الجزائر العثمانية، وفى ربيع الأول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥ شن «صالح ريس» هجوما على المراكز الإسبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة «بجاية» من الإسبان، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله فتوفى فى رجب ٩٦٤هـ/ يوليو ١٥٥٦م. وفى أعقاب ذلك شهدت إيالة الجزائر أوضاعا مضطربة، استغلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكلل بالنجاح.

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار فى الجزائر عين السلطان العثمانى «حسن بن خير الدين» بكلربيك على الجزائر، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل فى ذلك.

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند، والخلافات القائمة بين البحارة والإنكشارية والثورة التى قامت فى قسطنطينية أمر السلطان العثمانى بتولية

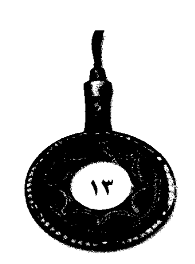


مسجد على شواطئ الجزائر



«علج على» حاكما على الجزائر فـوصلها فى رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨. وقد شـهدت ولاية الجزائر فى عـهده استـقرارا واضحا، كـما شهـدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الصليبيين رأى «علج على» ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربى تحت الحكم العثمانى، ومن أجل ذلك اهتم بتوجـيه الجهـاد العثمـانى لطرد الإسبان من بلاد المغـرب العربى عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين فى ثورتـهم ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإعادة فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثـمانية. وبالنسبة لتونس فـقد توجه «علج على» لفتحـها وتمكن من هزيمة القوات الحفـصية المؤيدة من قبل الإسـبان، ودخول المدينة فى نهايـة عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالى وأخذ البيـعة للسلطان العثمـانى «سليم الثانى» وضرب السكة باسمـه. وبالنسبة للفـتـرة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فـقـد تميـزت بالصـراع بين قـوى ثلاثة هى الـبـاشا ممـثل السلطان، والإنكشارية، وأمراء البحـر، وقد ساند الإنكشارية أمراء البحـر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا. وفى عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثمانى، وانتخاب الداى رئيس الديوان حـاكـما عـلى الجزائـر مما أدى إلى تحكم قـادة الجند فى الدايات، وقـد اسـتـاء الأهالى من هذه الفوضى، وساندوا أمراء البحر الذين فرضـوا أحد رجالهم على الأوجاق فى عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية. ومنذ عام ١٧١١ اغتصب داى الجزائر صـلاحيات الباشا العثمانى. وظل الدايات ينتخـبون من بين أمراء البـحر، وبمرور الوقت أصبح الداى يحكم دون مـشورة الديوان، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه إلا السيادة الاسمية.

وخلال ذلك أصبـحت السلطة الحقيقيـة فى أيدى رؤساء القوات غير النظامـية، ولم يصبح للسلطان العثمـانى سوى السيادة الاسمـية فقط، وأصبح الحاكم الملقب بالـداى هو المتقلد الرسمى لأمور الحكم ونتيجة للسلطات الواسعة التى أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستـقلة، فقد كان من حق الدايات عـقد المعاهدات مع الدول الأجنبيـة دون الرجوع إلى السلطان العثمانى، ولـم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شىء إلى الآسـتانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر، وخلال القـرن الثامن عشر شهـدت الجزائر انهيارا اقتصـاديا بسبب كساد الحركـة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوروبية للشواطئ الجزائرية، كـما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة، وقراصـنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن، وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم.



ونتيجة لضغوط قبـاطنة البحر الجزائريين على السفن الأوروبية التى تمر بشواطئ بلادهم وفـرضهم الإتاوات المستمرة عليـهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسـبانيا حمـلة فى عام ١٧٧٥ للاستيـلاء على ثغر الجزائر التى كانت تعـده مكمن الخطر على سفنها فى البـحر المتوسط، ولكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء على الثـغر الجزائرى رغم النيران الحامية التى صبتهـا عليه. ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حـاول الإسبان تكوين حلف أوروبى ضد الجزائر، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوروبية تتنافس فيما بينهـا لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيـازات سياسية وتجارية معـهم، وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتـحدة إقامـة تحالف أمريكى أوروبى ضـد الجزائر، ولكنهـا فشلت مما أدى إلى رغبتها فى شراء السلام بالمال.

ولنا هنا أن نتساءل هل الجـهاد البحرى الإسلامى، وفـرض الإتاوات على السفن الأوروبية التى تخالف المسلمين فى عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة.

الواقع أن تاريخ الجزائر الحضارى تعرض لكثيـر من التشويه؛ فالمؤرخون الأوروبيون يصرون على اعتبار البحـارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبـية على بلادهم أمثال «عروج» وأخيه «خـير الدين بربروسا» و«صالح ريس» على أنهم قراصنة مع أن هؤلاء كـانوا مثلا أعلى فى البطولة والفدائية، فقد جسد «عروج» و«خيـر الدين» فى نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال فى المعارك التى خاضوها دفاعا عن إسلام وعروبة شمـالى أفريقيا، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمى هذه البـلاد لمواجهة أعداء الإسلام، ومن المؤسـف حقا أن نرى بعض المؤرخين والبـاحثين المسلمين قـد سايروا المؤرخين الأوروبيين فى هذا الرأى الخـاطئ، ووصفوا عمليات الجـهاد الدينى البحرى التى قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيـحية التى دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليهـا عملية الجهاد البحرى الإسلامى، فليس من المنطقى أن نعتبر الرجـال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السـواحل الإسلامية فى شمالى أفـريقيا والعمل على حـماية الممتلكات والأرواح الإسلاميـة بأنهم قطاع طرق وقراصنة ولا هَمّ لهم إلا السلب والنهب وخنق التجارة الدولية، وعرقلة قيام علاقات سلمية بين الشعوب. ومن الغريب حـقا أن نجد أفكارا خـاطئة حول هـذا الموضوع لا تزال رائجة يرددها مـتخصـصون أكاديمـيون، الواقع أن هجوم السـفن الإسلاميـة ضد السفن البحـرية الصليبيـة كان جهـادا بحريا إسلاميا وخاصة أنه كانت هناك حروب مستمرة مع هذه الدول.



وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامى فى محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو فى البحر؛ لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا كان جهادا بحريا إسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين فى إسبانيا وفى شواطئ بلاد المغرب. كما أن ما قاموا به يمكن اعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن القرصنة - إذا صح ذلك التعبير - لم تكن مقصورة على مسلمى شمال أفريقيا، ولكنها كانت سلاحا استخدمه المسلمون وغير المسلمين، فكما كانت السفن الإسلامية تعتدى على سفن الدول الأوروبية، فإنها كانت سلاحا استخدمه الأوروبيون ضد بعضهم البعض وضد المسلمين أيضا، فقد استخدمه الإنجليز ضد سفن خصومهم الإسبان، وباركته الحكومة الإنجليزية،



إحدى معارك الأسطول العثمانى التى قادها «بربروسا»

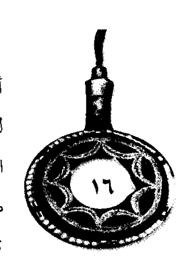
١٥

كما شهره البرتغاليون ضد السفن الإسلامية بعد موقعة ديو البحرية. وعلى أية حال فقد استطاع قباطنة البحر المسلمون الدفاع عن الشمال الإفريقى ضد العدوان الإسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن ينضموا تحت لواء الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد الإسلامى فى منطقة المغرب العربى من جهاد فردى، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما تستطيع به ردع أى عدوان صليبى ضد أى دولة إسلامية. وظلت الروح الصليبية تؤثر فى العلاقات بين ولايات المغرب العربى والدول الأوروبية، حتى بدأت المشروعات التى وضعت للتدخل فى شئون هذه الولايات تبدو للعيان، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت فى عام ١٨٠٨م الذى راودته فكرة الاستيلاء على الجزائر فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على الجزائر، وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على الجزائر، وأشار إلى الأماكن التى تصلح لإنزال الجنود الفرنسيين، والطرق والآبار التى يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة.

وعلى الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون على الاستيلاء على الجزائر فإن الظروف الدولية فى ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التى بدأت تثبت فى أذهان ساسة فرنسا الذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لذلك.

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان الدولة العثمانية لأسطولها فى معركة «نوارين البحرية» ١٨٢٧م، فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين وخاصة أنها كانت ترغب فى الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها.

وقد استغلت فرنسا فرصة المشادة الكلامية التى حدثت بين داى الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها فى دفع المستحقات التى عليها للجزائر نظير الحبوب التى استوردتها منها، فأرسلت فى يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية، ووجهت إنذارا إلى الداى كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة، وتقديم كافة الضمانات التى تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأية إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية، وأن تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية، وأن يعلن الداى أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها، وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر فى حالة رفضها لشروط الإنذار، ومع ذلك فقد رفض الداى الإنذار الفرنسى، وأصر على التمسك بموقفه، وأخذ يتهكم على المطالب الفرنسية بقوله: «لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتى».

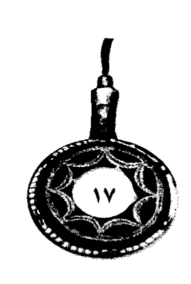


ونظرا لأن قيـام فرنسا بعمليـة حربية ضد الجـزائر أصبحت شبـه مؤكدة أبلغت فـرنسا الدولة الـعثـمانيـة بأن والى الجـزائر الذى أظهر عـداء واضحـا للفرنسـيين بتحقـيره لقنصل فرنسـا، ورفضه تقديم التـرضية العلنية قـد جعل الحرب مـحققـة بين فرنسا والجـزائر. ولما كانت الدولة العـثمانيـة منشغلة فى مشاكلها فى جزيرة المورة، ولا تنوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطـأت فى حسم الموقف بالطريقـة المناسبـة مما أعطى لفرنسـا فرصـة الانفراد بالأمر، وخـلال هذه الفتـرة بدأت فرنسا فى البـحث عن حلول أخرى تجنبـها نفقات الحرب، وفى نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا فاقترح «دورفتى Drovetti» قنصل فرنسا فى الإسكندرية قيام محمد على وإلى مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداى والقضاء على حكومـته، واحتلال الجزائر وضمـها إلى أملاكه على أن يكون لحليفتـه فرنسا امتيازات واسعة فى هذه البلاد.

ولما فوتح محمد على فى الأمر تردد فى البداية خشيـة فقدان ثقة العالم الإسلامى فيه وقال للقنصل الفرنسى: «أنتم مـسيحيون أما نحن والجـزائريون فمسلمون، وسمـاع أقوال كتلك ونحن ذوو دين، وأمة وشريعة ودولة واحـدة، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا» ولكن سرعان ما عـدل محمد على عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحـملة لتأديب الداى بشرط أن تدفع له فرنسا مـبلغا ماليا، ودعما بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطوله الذى تحطم فى موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧م.

وفى محاولة من محمد على لتكشف الموقف أرسل إلى الداى برسـالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيـمة إذا أصر على موقفه المعـادى لفرنسا، وكان رد الداى عليه فليذهـب محمد على ليأكل الفول.

وحتى يأخذ مـشروع محمد على بالحـملة على الجزائر شكلا رسميا لا تعـترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسـا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثمانى على المشـروع، وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعتـرضوا عليه وحرضـوا السلطان العثمانى ضده، كـما حذرت بريطانيا مـحمد على الذى بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل، وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الأوروبية ضـد هذا المشروع كما عـارضت الدولة العثمـانية امتداد نفـوذ محمد على إلى شـمالى أفريقيا، وإزاء هذه العقبات أغمضت فـرنسا أعينها عن هذا المشروع، وظلت تتحين الفرص المواتية للقيـام بنفسها بحـملة عسكرية ضد الجزائر والانفـراد باحتلالها، وقـد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بـريطانيا بالانقلاب النيابى الذى حدث فـيها خلال ذلك الوقت وانشـغلت الروسيا وبروسيـا والنمسا بالثورات التى انـدلعت فى إيطاليا وبولندة فى تلك الفتـرة فتذرعت فرنسـا أمام الرأى العام الأوروبى أنها تدافع عن قضية أوروبية تدعم من خـلالها قواعد العدل، وأصدر ملكها



قرارا فى ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعلان التعبئة العامة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فأبحر الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفا من رجال البحرية وقام الجيش الفرنسى المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتل، و٩١ قطعة مدفعية بغزو الجزائر، بإنزال جنوده فى سيدى فرج على بعد ٢٥ كيلو مترا غربى مدينة الجزائر، ونتيجة لذلك عهد الداى إلى صهره إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة. وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مجيدا استطاعوا خلاله حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانئ ساحلية، بينما أصبح داخل البلاد فى أيدى الزعماء ورؤساء القبائل.

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل فى الداخل، فنجح الفرنسيون فى احتلال سيدى فرج والوصول إلى مدينة الجزائر، ومهاجمة قلعة السلطان، وحصن القصبة، وإشعال النار فى مخازن الذخيرة، ولما رأى الداى تحول الموقف فى غير صالحه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين، ووسط فى ذلك قنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضوا هذه الوساطة وأصروا على فرض شروطهم والتى كان من أهمها ما يلى:

١ ـ تسليم حصن القصبة، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين.

٢ ـ ضمان القائد الفرنسى حماية الداى، وممتلكاته الشخصية.

٣ ـ ترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريده.

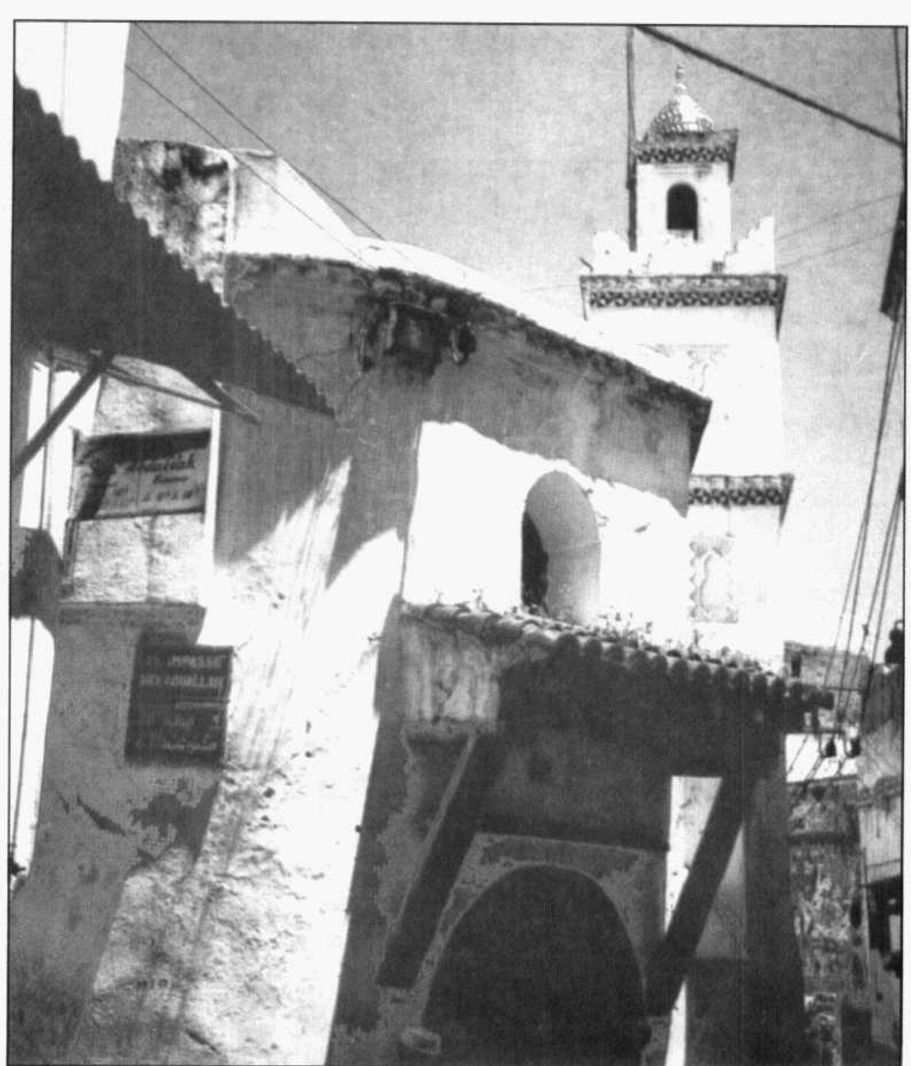
٤ ـ عدم اتخاذ أى إجراءات انتقامية ضد الجنود الجزائريين.

٥ ـ كفالة حرية الجزائريين فى إقامة شعائرهم، وصيانة ممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم، والمحافظة على أعراضهم.

وقد وافق الداى على هذه الشروط التى تضمنت متطلباته وقرر مغادرة مدينة الجزائر هو وأسرته إلى نابلى بإيطاليا، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقعت أعباء المقاومة على الشعب الجزائرى نفسه، وبدأ الاستعمار الفرنسى الرسمى فى الجزائر، وقد حاولت الدولة العثمانية استرداد الجزائر بالطرق الدبلوماسية، وبذلت مساع عديدة لدى إنجلترا والنمسا من أجل استرجاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشغولتين بالأوضاع الأوروبية فى ذلك الوقت.

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى، وعدم معرفة داى الجزائر بعواقب الأمور، وبقدرات فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوروبية والتطور الصناعى فى أوروبا.

هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعيتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها، أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى:



مسجد صغير قديم - القصبة - الجزائر



١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة، وبتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير الدين اعتبرت ولاية ممتازة، وقاعدة لتوسيع الحكم العثمانى فى كافة بلدان المغرب العربى.

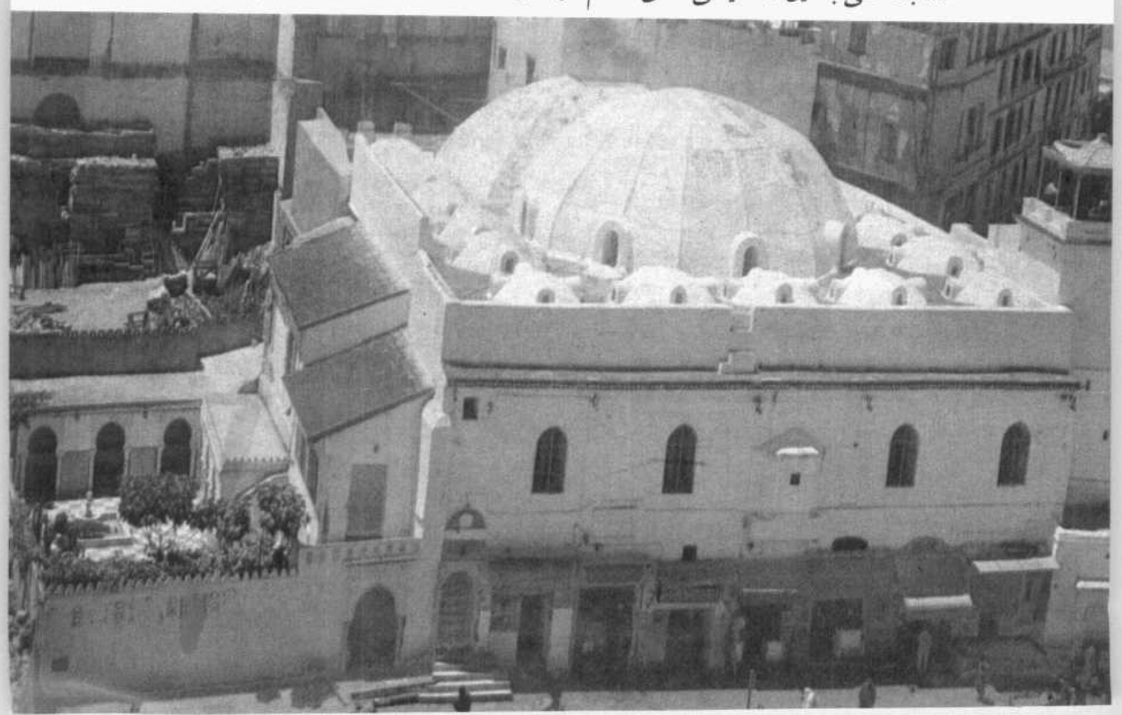
وقد شهدت الجزائر عدة تغيرات خلال الحكم العثمانى لها يمكن تقسيمها إلى أربع فترات وهى:

١- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهى فترة حكم البيكلربكوات وفيها كان الوالى بمثابة ممثل السلطان أو نائبه، وكانت الجزائر تعد أقوى نيابات المغرب، وكان البيكلربك يعين من قبل السلطان، وهو بدوره يشرف على الباشوات الحاكمين فى إقليمى طرابلس وتونس.

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكلربك أصبحت الجزائر ولاية عادية، وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعينهم حكومة الباب العالى.

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨-١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعلية على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات.

مسجد على بتشين (المسيحى الذى أسلم) وصار قائدا - لاحظ الدكاكين السبعة أسفله



٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالسلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولى رجال البحر زمام الأمور وتم تولية أحدهم تحت لقب «داى».

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداى موجودا وإن أصبح دايات الجزائر يحملون لقب «الباشا» وإلى جانب ذلك فقد عاون حكام الجزائر فى إدارة شئون البلاد مجلس استشارى، هذا بالإضافة إلى الديوان الذى كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية. وقد تركزت مهمة الديوان فى مساندة الحاكم فى إدارة البلاد.

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم السلطان إلى «خير الدين» أثناء فتح الجزائر والمتطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذى لم يقتصر دورهم فى الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن، بل أخذ معظمهم يتدخل فى إدارة شئون البلاد وفى حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا، وكان مقتل تركى واحد دافعا لحدوث مجزرة بين الأهالى إذا لم يقبض على القاتل.

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند فى الجزائر فقد بدأوا يتزوجون من الأهالى الذين كانو يرحبون بذلك رغبة فى الحماية الفعالة منهم، كما عمل بعضهم بالتجارة وربحوا ثروات طائلة.

ومن الفرق العسكرية الشهيرة فى الجزائر القولوغلى وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالى. وقد استخدم بعضهم فى الوظائف المساعدة، وفى أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالى؛ نظرا لمعرفتهم اللغة التركية، وقد تميز هؤلاء بتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثمانى فى الجزائر ولعبوا دورا بارزا فى خلق النيابات العثمانية فى شمال أفريقيا، كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوروبية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى. وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين، وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربى من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدى فى ذلك الوقت، وقد نجح هؤلاء فى مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم فى قيادة السفن، وانضباطهم ومعرفتهم لشواطئ بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة فى الجزائر وخاصة أن المغانم التى كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد.

وحول النظام الضريبى فى الجزائر وغيرها من الولايات المغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة،

ففى كل عـام تخرج مفرزة عـسكرية تبدأ عملها مـا بين شهرى مايو وأكـتوبر وتتجول فى القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقررة عليها، وكانت عملية انتقال هذه المفرزة من منطقـة إلى أخرى، وعملية إطعام مابها من جنود وموظفين يتـحملها الأهالى. وليس معنى ذلك أن كل القبائل كـانت تسدد ما عليها من ضـرائب فكانت هناك قبائل لا تدفع الضرائب نظرا لصـعوبة فرض سلطة الحكومة عليها.

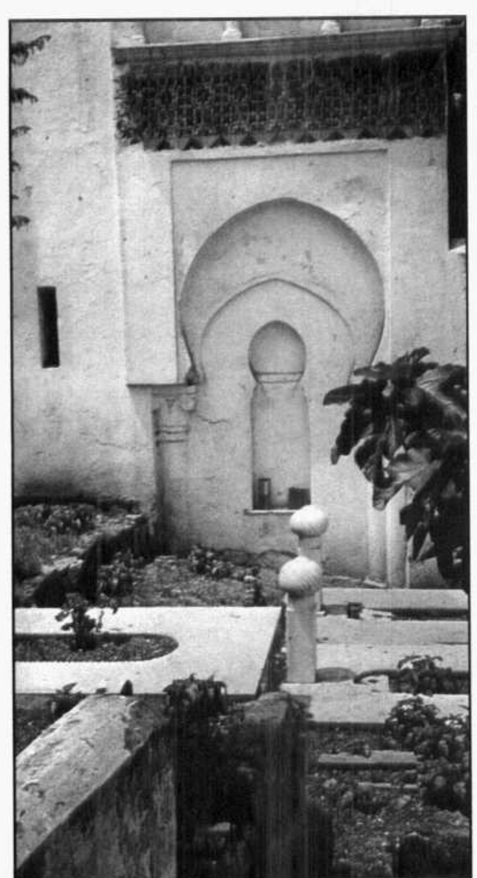
وكانت الضرائب على نوعين: ضـرائب شرعية مثل الزكاة والعشـور على المحاصيل وتحدد بحسب الأفدنة المزروعة، وضـرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهى بمثـابة هدايا إجبارية تقدم فى المناسـبات كالأعـياد، وهناك ضـريبة «اللزمـة» وكانت تؤخـذ لتمـوين الجند فى الأرياف، وهناك ضرائب المكوس على الأسـواق. وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعـون ضرائب على المهن التى يعملون بها .

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية. فقد كان نظام الالتزام بؤرة لكثيـر من المفاسد والعيوب والنهب والتى تقع جميـعها على عاتق الأهالى حيث كان الفـلاح يدفع مثلى أو ثلاثة أمثال الضـريبة المقررة عليه. وكان الامـتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا.

وإلى جانب ذلك فقد كانت خـزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقـد كان لها حصة من الإتاوات التى يفرضها البحارة على الدول الأوروبية مقـابل حرية مرور سفنهم، كما كانت الهدايا التى يقدمها القناصل للدايات أشبه بجزية سنوية.

وفى محاولة لضـبط الأمور عملت الحكومة العثمـانية على الاستعانة ببـعض القوى المحلية لفرض سيطرتهـا على الولاية، فاختاروا بعض القـبائل وسموها بالمخزن، وكلفـوها بالمساعدة فى القيـام بأعمال الشرطـة وتأديب القبائل العـاصية التى ترفض دفع الضـرائب وذلك فى نظير بعض الامتيازات التى تمنحها لها.

كما أنشأت الحكومة ما يسمى «بالسمول» (جمع سمالا) وهى جماعات صغيرة من الأهالى منحتها بعض الأراضى للإقامـة فيها نظير قيامها بحمـاية الجنود والمسافرين، والمحافظة على الأمن فى المناطق المحيطة بها والمحافظة على بعض النقاط الهامة.



المقابر التركية التى دفن فيها الباشوات والدايات

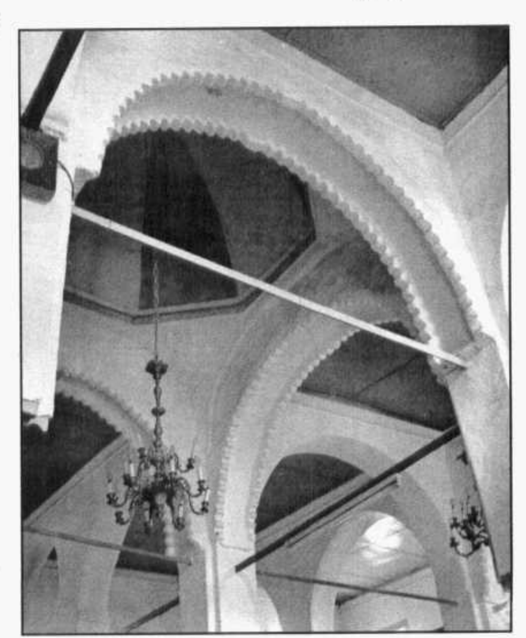
وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهى:

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السلطان، وتشمل مدينة الجزائر وضواحيها وترتبط بالداى مباشرة.

- ولاية الجنوب وكان يحكمها باى وعاصمتها الميدية وكانت أصغر الولايات.

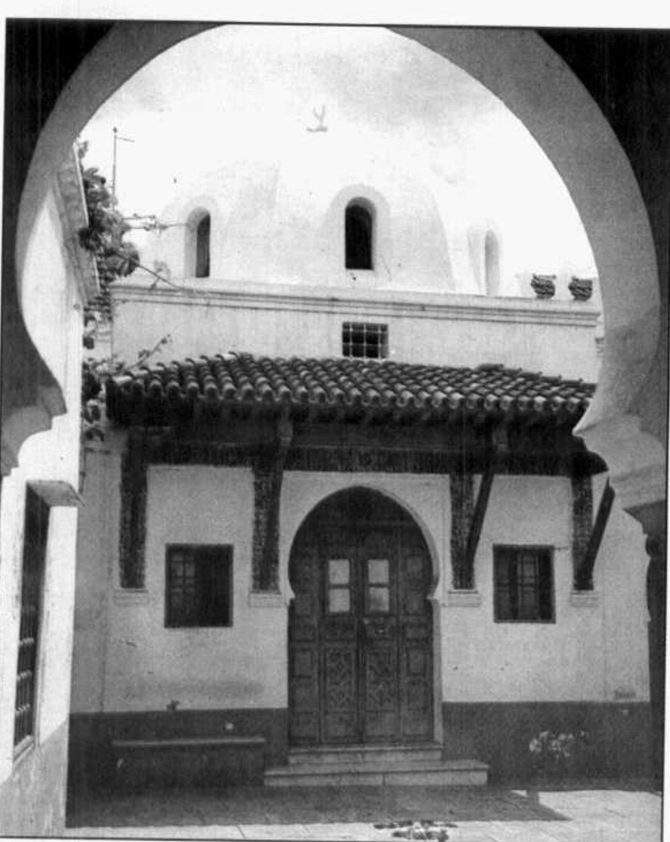
- ولاية الغرب وكان يحكمها باى وعاصمتها مازونة ثم نقلت بعد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران.

- ولاية الشرق وكان يحكمها باى وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس.



جامع الغزال من العهد التركى فى القسطنطينة





الجامع الكبير بالعاصمة الجزائر -
القبة من الطراز التركى



صناعة النسيج اليدوية فى الجزائر

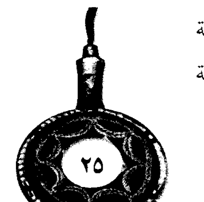


واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م وبعدها أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاة يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات، ثم تغيير ذلك النظام فى عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩ بما أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدايات فى عام ١٦٧١م الذى استمر حتى وقعت الجزائر فى قبضة الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ م.

وبالنسبة للنظام القضائى فقد كان جزءا من التنظيم القضائى للدولة العثمانية الذى يبدأ بشيخ الإسلام، واثنين من قضاة العسكر. وقد عين قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة العثمانية، والآخر للمذهب المالكى الذى كان يسير عليه معظم سكان شمال أفريقيا. كما وجد المجلس الشرعى الأعلى الذى يتألف من قاضيين ومفتيين على المذهبين المذكورين. وأحد المشايخ للنظر فى شئون الأوقاف وممثل للحكومة، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد فى مراجعة أحكام القضاء، والنظر فى المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا.

٢ - أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثمانى:

وبالنسبة للنواحى الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس فى ذلك فلم تتدخل فى تحسين وسائل الزراعة البدائية أو فى العمل على الوقاية من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجارى المائية بل تركت الأمور على حالها، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع نسبة الضرائب على الفلاحين أكبر الأثر فى عدم استغلال الأراضى الصالحة للزراعة، ويقال نفس الشىء عن التجارة. حقيقة كان هناك ازدهار محدود فى هذا القطاع الذى تمثلت أنشطته فى المبادلات التجارية المحلية بالأسواق، وفى التبادل التجارى مع المدن الحدودية فى تونس والمغرب، ولكن التبادل التجارى الخارجى كان مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوروبية فى وجه حركة التجارة الجزائرية بالمرصاد، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء الموانى الصالحة للتجارة، وبالنسبة للنظام النقدى فى الجزائر فقد أصدرت الجزائر سكتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء. فقد سك فى الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية مثل القنطار والأقة، والأوقية، والدرهم، والمثقال الذهبى والذراع القياسى وغيره.



وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج، ودباغة الجلود، وصناعة السجاد، وصناعة الأحذية، وصياغة الذهب، والصناعات الخزفية.

٣ - الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى:

أما عن الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى فقد طبعت بالطابع الإسلامى، فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامى فكان التعليم منتشرا فى أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التى كانت تمول من الأوقاف التى يهبها أهل الخير والصلاح، إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى «الشريعة» وهى الخيمة التى تنصب فى القرية لتعليم أطفالها، وكان هناك أيضا الكتاب أو ما يسمى الـ (مسيد) وهى تحريف لكلمة مسجد وكان يفد عليه الأطفال من ذكور وإناث وتركز التعليم على القرآن الكريم، والحديث والعلوم العربية والإسلامية. وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمى، وعدم القدرة على الإبداع حيث انحصر الجهد العلمى فى الحفظ، وكتابة الشروحات والحواشى والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها.

ومما سبق يتضح أن الوجود العثمانى فى الجزائر لم يكن فى يوم من الأيام وجودا استعماريا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استنجاد الجزائر بالعثمانيين فى بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم. كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التى تجسدت فى عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة الصليبية على منطقة المغرب، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التى كانت موجودة والتى لم تتحرك للتصدى لهذا الخطر وإنما حاول بعضها التواطؤ معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشخصية على المصلحة العامة.

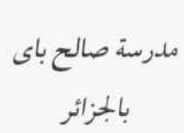
وإلى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عن الجزائر، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمل وجه، وفى أروع صور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفاع عن الإسلام، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوروبية.





صناعة الأحذية
اليدوية فى الجزائر



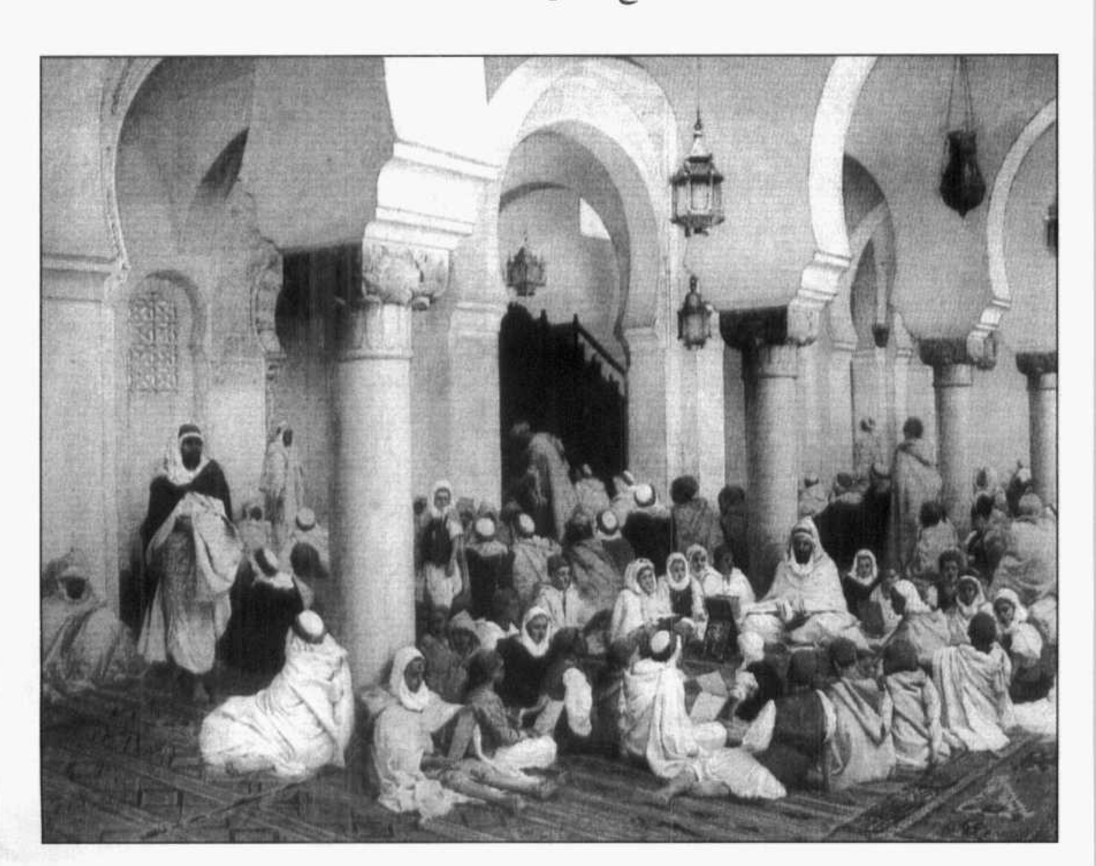


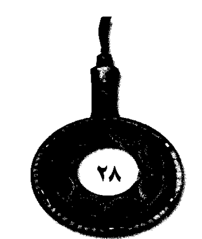
مدرسة صالح باى
بالجزائر



وعندما اختلت موازين القـوى، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشـاركة فى السـباق انعكس ذلك سلبـيا على قـوتها العـسكرية المتمـثله فى البحـرية مما أدى فى النهاية إلى عـدم القدرة على المحافظـة على أمن البلاد، وانتهى الأمـر بالأزمة التى اندلعت بين الجـزائر وفرنسـا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ .

قبر صالح باى فى مدرسته ومسجده

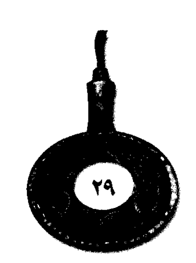




بعـد أن وقعت طـرابلس الغرب فى يـد الإمبـراطور الإسـبانى «شـارل الخـامس» فى عام ١٥١٠ ترك إدارتهـا لفـرسان القـديس يوحنا، الذين كـانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم.

وقد أحل فـرسان القديس يوحنا بهـذه المدينة الدمار، واتبـعوا مع أهلها سـياسة التـعصب الدينى حيث أقامـوا حكومة مسيحـية دينية استهـدفت تغيير الوجه الإسـلامى لهذا الإقليم العربى الإسلامى، كما أنهم جعلوا من مـيناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضـرب السفن الإسلامية التى تجوب البحر المتـوسط، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامـية المطلة على البحر المتوسط، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس الأهالى. فقد عمد أهالى طرابلس إلى مقاومـة هذه الهجمة الشرسة ضـد الإسلام مستعينيـن فى ذلك بالمجاهدين المسلمبن الذين كانـت سفنهم تجوب البـحر المتـوسط أمثـال عروج وخيـر الدين، ولكن إمكاناتهم الحـربية وجهودهـم البشرية حالت دون ذلك خـاصة بعد أن قام فـرسان القديس يوحنا بتحـصين المدينة، وتدعيم قلعتـها، هذا بالإضافة إلى تحالف «الحـسن الحفصى» حاكم تونس معـهم ومساندتهم، مما دفعهم إلى الاسـتنجاد بالسلطنة العثمانيـة كما فعلت الجزائر من قـبل. فأرسلوا وفدا إلى السلطان العثمانى «سليمان القانونى» يلتمـسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبى، ويعلنون ولاءهم له، والانضـواء تحت السيادة الـعثمـانية. وقـد وافق السلطان على طلبهـم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة الـنفوذ العثمانى على أقطار المغرب العربى، كما أن فيه إنقاذا لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليـبية، ومن حركة التنصير التى كان يرغب الإسبان صبغها بهم.

ونتيجـة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيـادة «سنان باشا» قائد الأسطول التركى فى ١٣ شعبـان ٩٥٨هـ/ ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسـان القديس يوحنا منها. وقد تكونت هذه الحـملة من مائة وعشريـن سفينة يساندها خـمسون أخرى وسـتة آلاف جندى، وأربعـين مدفـعا. وقـد قـام «سنان باشا» بمحـاصـرة المدينة وقصف قلعـتـها حـتى اضطرت إلى الاستـسلام، وفتح أبوابهـا للأتراك، وإجبار فـرسان القديس يوحنـا على مغادرتهـا واللجوء إلى مالطة.



ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية، وقاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب، والمحملة بالحجاج وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة.

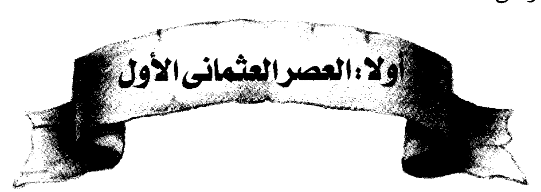
ويقسم المؤرخون الحكم العثمانى فى ليبيا إلى ثلاثة أقسام هى:

١- العصر العثمانى الأول والذى استمر فيه الحكم العثمانى المباشر لهذه البلاد. وهذه الفترة تنحصر ما بين عامى ١٥٥١/ ١٧١١م.

٢- حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م.

٣- العصر العثمانى الثانى ١٨٣٥-١٩١١م.

وفيما يلى نعرض لذلك:



بعد فتح العثمانيين لطرابلس، قام «سنان باشا» بتنظيم شئونها، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها، ثم اتجه بعد ذلك إلى استنبول حيث صدر فرمان سلطانى بتعيين «مراد أغا» فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك.

وقد واجه «مراد أغا» فى مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة، وترميم القلعة، وتنشيط الحياة العامة فى البلاد، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسبانى وعهد فرسان القديس يوحنا.

وقد عمل «مراد أغا» على إعادة الاستقرار إلى طرابلس، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها، وشجعهم على العمل فى استثمار الأرض الزراعية، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل فى الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة، كما نجح فى زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها.

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها.



واستمر مراد أغا فى حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى «تاجوراء»، وأنشأ مسجده المشهور بها. ويقال: إنه استعان فى بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا وجعله على شكل حصن، ويعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة فى ليبيا.

وفى أعقاب وفاة «مراد أغا» صدر أمر سلطانى بتعيين «درغوث باشا» واليا على طرابلس الغرب فى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحى المعمارية فى طرابلس التى جعل منها عاصمة فى الشمال الإفريقى، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط. وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها «درغوث» قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية، ورد الأخطار عن ديار الإسلام، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية.

وقد نجح «درغوث» فى القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا فى طرابلس، ومد النفوذ العثمانى إلى معظم السواحل الليبية. ونتيجة لذلك شهدت طرابلس انتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى أثناء الاحتلال الإسبانى وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركات العسكرية بها، وانتقال بعض الجنود المشاركة إليها ضمن القوات العثمانية. وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى. وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية. وقد انصرف اهتمام «درغوث» فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام «برج التراب» على الجانب الشمالى الغربى من سور المدينة الأصلى، كما أنشأ مسجده المعروف فى عام ١٥٥٤م والذى لا يزال قائما حتى الآن، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود لا تزال آثارها قائمة حتى الآن.

وعلى الرغم من الظروف الحربية التى واجهت «درغوث» فإنه استطاع تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا فى ذلك بالأسرى الذين كانوا فى حوزته.

ونتيجة للتحصينات التى أقامها «درغوث باشا» لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون فى الهجوم على طرابلس، أو التفكير فى غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة.



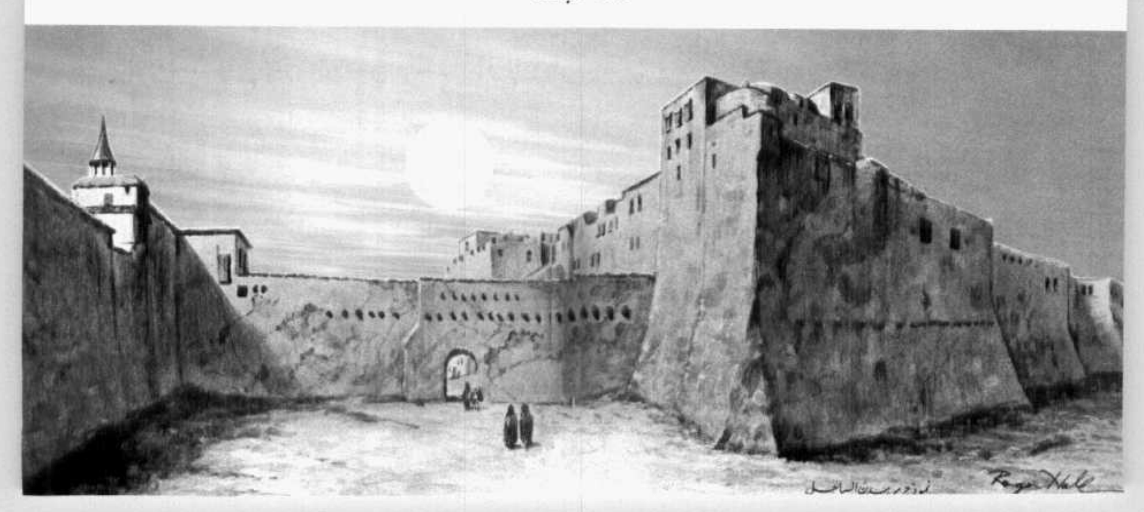
وبعد وفاة «درغوث باشا» تولى «يحيى باشا» الحكم فى طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه «محمد بك» الذى ثار الأهالى ضده، ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه «علج على» الذى عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود؛ لذلك سمى بدار البارود وخلال ذلك نشط «علج على» فى جهاد الإسبان، ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثمانى.

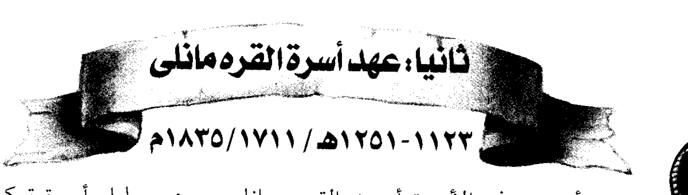
وخلال تلك الفترة، ورغبة من الدولة العثمانية فى الحفاظ على وجه هذا الإقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالى فى إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا. كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس، ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية فى هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات، وامتلكوا الأراضى الزراعية وأشجار النخيل، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم «القولوغلية».

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاة كانوا أقل شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وصل «أحمد القره مانلى» أحد رجال الإنكشارية إلى أريكة الحكم.



قلعة الباشا





ثانيا: عهد أسرة القره مانلى

١١٢٣-١٢٥١هـ/ ١٧١١/١٨٣٥م

أسس هذه الأسرة أحمد القره مـانلى، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مـانيا الواقعة جنوبى هـضبة الأناضول بآسـيا الصغرى، وكـان يمتلك شخـصية قوية طـموحة واسعـة الحيلة ساعـدته على أن يتغلب على كثـير من المصاعب التى تعـرض لها. فقد وقف مـوقف المتفرج من الخلافـات التى كانت قائمة بين الـباشا والديوان وجند الإنكشارية والقولوغليـة، وأظهر عدم انحيازه لأى فريق، حتى فـاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجـند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعـيان طرابلس حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس ١١٢٣هـ/ ١٧١١م بدلا من الوالى المعين من قبل السلطان، والذى كان غائبا عن البـلاد وقتذاك. ومع ذلك فقد ظلت الصعوبات تواجه «أحـمد القره مانلى» فى الخارج والداخل، فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حملة لتأديبه، ولكنها فشلت فى مهمتها مما جعل السلطان «أحمد الثـالث» يصدر فرمانا ثبته فيه فى حـكم طرابلس ومنحه لقب الباشوية، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته.

أما فى الداخـل فقد تمكن من الـقضاء على فتن الـضباط الإنكشـارية الطامعـين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى ثم أمر رجاله بذبحهم.

وقد اعـتمد أحـمد باشا على العنصـر الوطنى فى الجيش والإدارة فأوكل الأعـمال الإدرية لأبناء البلاد، وجعل اللغة العربية اللغـة الرسمية فيها، كما كان يتولى بنفســه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخليـة. وقد استطاع أن يسـتعيـد السيطرة على إقليم فـزان الذى كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية، وبذلك تمكن من فتح طرق التـجارة عبر الصحراء من أفريقيا، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية فى جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة.

وقد اهتم «أحمد القره مانلى» بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التى لا تدفع له الإتاوة، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجـهة كافة الاحتمالات والتهديدات التى تضمن عدم مهاجـمة الشواطئ الليبيـة بواسطة السفن الأوروبية من الخارج، وإخمـاد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه فى الداخل. لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته، فبدأ بتجديد أسوار طرابلـس وتقويتهـا، وشرع فى إنشـاء الأبراج، وعنى بتزويد الحـصون بمدافع من عـيارات كبيرة، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة.



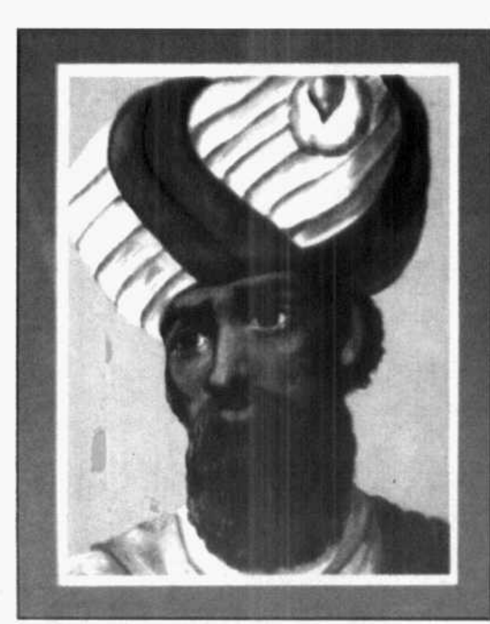
وقد اتسمت عـلاقات «أحمد القره مـانلى» مع الدول الأوروبية بالعداء بسبب مهـاجمته للسـفن الأوروبية فى عرض البحـر المتوسط، وفرض إتاوات عليها، وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشـروطه ضمانا لسلامة سفنها، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت إلى دفع الإتاوة حتى تأمن عـلى سفنها العـاملة فى البحـر مما أدى إلى حصـوله على الأموال الكثيرة والغنائم.

وفى عهـده هاجم الفرنسـيون طرابلس بثلاث عـشرة قطعة بحـرية ردا على الإهانات التى ألحقها البحـارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبـة فى إطلاق سراح أسراهم. ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذى تعرضت له طرابلس من مدافع الأسطول الفرنسى.

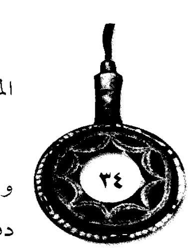
وبالنسبة للنواحى العـمرانية فقد استطاعت شخصـية «أحمد القره مانلى» أن تحفـر بصماتها على الحركة العـمرانية تتجلى آثارها الباقـية فى المسجد الجميل الذى يحـمل اسمه، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فى عـام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة، وفى البـيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها، وقيـامه ببناء «فسقية» لسقى أهل السفن على البحر.



على القره مانلى



حسن القره مانلى



والحق أن أحـمـد باشا كـان من الولاة القـلائل الذين خلفـوا طابعـهم المعمارى على مدينة طرابلس.

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوروبة، والولايات المتحدة معـاهدات معها حتى يمتنعوا عن التـعرض لسفنهم فى نظير دفع الإتاوات الباهظة والهـدايا الثمينة لهـم مما أكد استقـلاليتهم الواضـحة عن العثـمانيـين وأثبت أن العلاقـة معهم لا تزيد عـن علاقة اسـمية تتـسم بالولاء للسلطان العثمانى، وترتبط بالصـلات الروحية مع الدولة العثمانية، واستـمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عـاما استطاع خلالها تثـبيت حكم الأسرة القره مـانلية فى ليبيـا، وتأكيد وحـدة هذه البـلاد، وقـد خلف «أحـمـد القـره مـانلى» فـى الحكم ابنه «مـحـمـد باشـا» (١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م) فقد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة، يضاف إلى ذلك أنه ورث حكم البلاد الليـبية بعـد أن استقـر أمرها، وزادت إيراداتها، وأصـبحت مهـابة الجانب من الدول الأوروبية البحرية فقد تسارعت هذه الدول إلى عقد المعاهدات معه ودفع الإتاوات له. وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الآستانة.

ومع ذلك فلم تخل فتـرة محمـد باشا من فتن وثورات، كان من نتـيجتهـا اضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر، وانتشـرت أعمال اللصوصية والسلب والنهب لدرجة أن ضج الناس، واستصرخوا الباب العالى، وزاد الطين بلة انقســام الأسرة القره مانلية على نفسها مثل فتنة «أحمد بن حـسن كخيا» صهر الباشا وإخوته، ومـؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا. وعلى الرغم من نجاح الباشا فى إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته فى ٢٤ يوليو ١٧٥٤م، وله من العمر ٤٥ سنة.

أما الحاكم الثـالث من أفراد الأسرة القره مانليـة فكان «على باشا» الذى تولى أريكة الحكم وعمـره ثلاث وعشـرون سنة، وكان لحـداثة سنه أكبـر الأثر فى مشـاركة قادة الإنكشـارية له فى الحكم، على أن أهم الأحـداث التى عصـفت بحكمـه تمثلت فى المجـاعة وانتـشار الطاعـون بين الأهالى وعجز الحكـومة عن دفع مرتبات الجند والأسالـيب التعسفيـة التى لجأ إليها رجـال الباشا خلال جمع الأمـوال من القبائل، هذا بالإضـافة إلى الأحداث التى ارتبطت بالشقـاق العائلى بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين «حسن القره مانلى» وأخيه «يوسف» الذى انتهى بمقتل الأول واستعـانة بعض أفراد الأسرة بباشـوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانـلية من الحكم وما صحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه، كل ذلك كـان له أثره على الحياة العامة فى البلاد، وانتهى الأمـر بصدور فـرمان سلطانى بتـولى «يوسف بك» أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخـيه



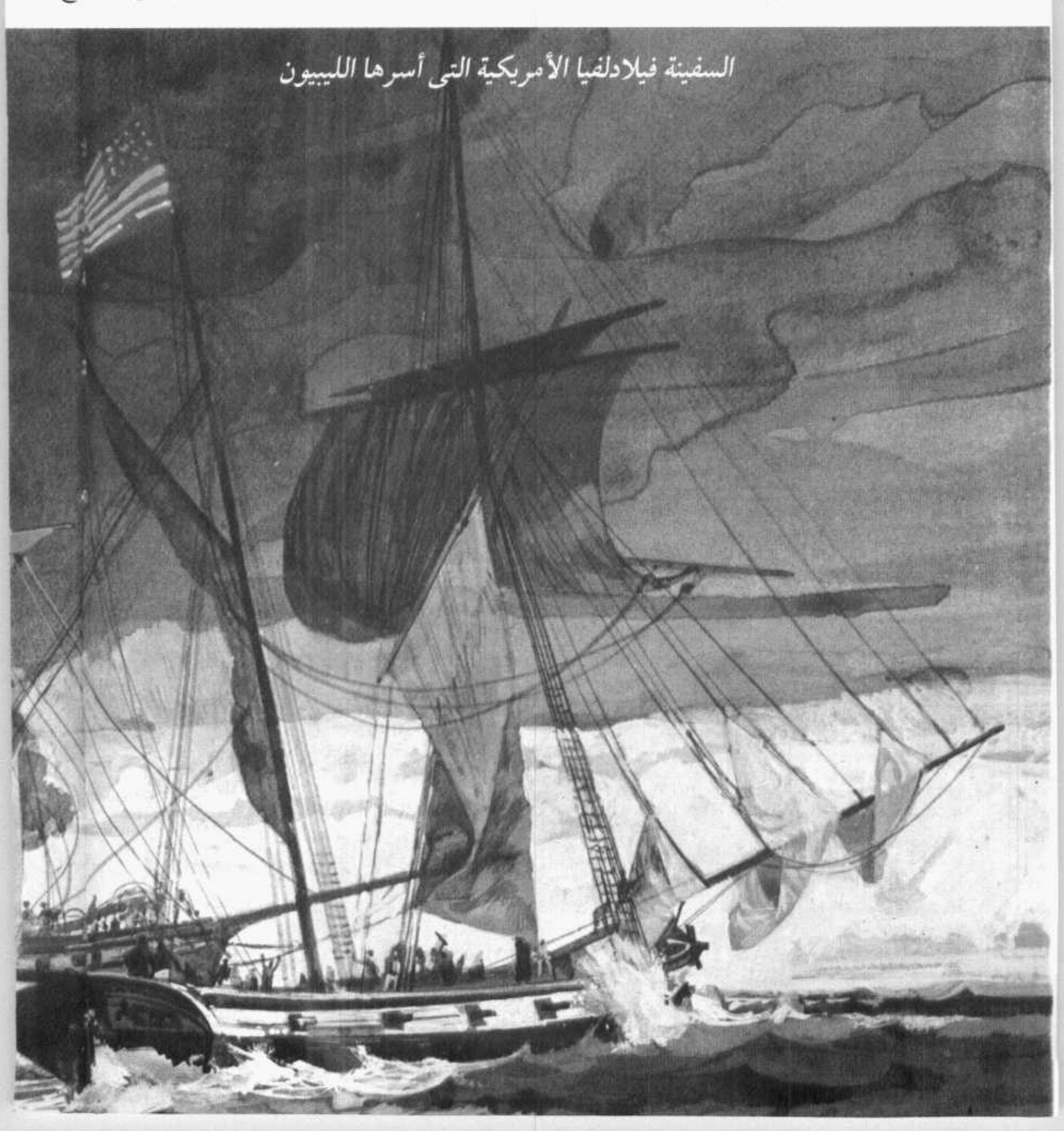
«أحمد الثانى» الذى كان أحق منه بالولاية. ولتوضيح الوضع العام الذى كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت فى أسوأ حال غداة استيلاء «يوسف باشا القره مانلى» على السلطة وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب فى سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامة، ومهما كان الرأى حول الطرق التى سلكها هذا الرجل فى الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشىء من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضارى فى عهده، مما كان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد.

وقد اهتم «يوسف باشا» بتشجيع حركة الملاحة، وإعادة تنظيم البحرية التى كانت تشكل المورد الرئيسى للبلاد، كما اهتم بمتابعة الأحداث فى البحر المتوسط والصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا، وقام بتشجيع حركة القرصنة التى كانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثبيت حكمه، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة «أبى قير البحرية» مما أدى إلى استياء إنجلترا والدولة العثمانية أيضا من موقف يوسف باشا، ففى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان العثمانى إخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء فى مصر. ونتيجة لاستياء الدولة العثمانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه، وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا. أما عن علاقة «يوسف باشا» بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية، وإجبارها على دفع الإتاوات. ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبة الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى «فيلادلفيا» على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأسرها جنود «يوسف باشا» بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الإتاوات التى تفرض على سفنها.

ونتيجة لقرارات مؤتمرى فيينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها توقفت الدول الأوروبية عن دفع الإتاوات مما أدى إلى نضوب خزانة «يوسف باشا» مما دفعه إلى الاقتراض من الأجانب، وفرض الضرائب على الأهالى واتباع أسلوب الشدة والبطش ضد معارضيه. وانتهى الأمر بتخليه عن الحكم لابنه على فى ربيع الآخر ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

وقد بذل «على القره مانلى» جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده.

ومع ذلك فقد استمرت الثورات، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن، وعدم انتظام الأمور مما أدى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة، فهيأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة «مصطفى نجيب باشا» وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالى بكل مظاهر الحماس. وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع



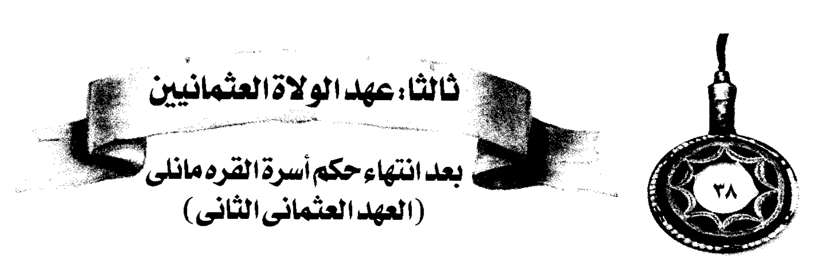
السفينة فيلادلفيا الأمريكية التى أسرها الليبيون

والحصون والمواقع الإستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثمانى المباشر على الإقليم حيث قرأ «نجيب باشا» أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطانى بعزل «على باشا» وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الآستانة ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية، وأبلغهم بذلك، وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القره مانلية.

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالى ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها.



كرسى عرش يوسف قره مانلى مذهب



تولى شئون ليبيا فى الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهى الفترة التى يطلق عليها العصر العثمانى الثانى ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد، وتدعيم سلطة الحكومة فى مدينة طرابلس والمناطق الداخلية، هذا بالإضافة إلى تعقب شيعة الأسرة القره مانلية المعزولة.

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت فى الموقف المعادى من زعماء الداخل مما تطلب منها حشد قواتها للقضاء على عصيانهم وخاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس فقد «اهتم نجيب باشا» أول وال عثمانى بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد، ومع أن «غومة المحمودى» أحد زعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة، ومساندة الموقف الموالى للحكم الجديد فإن الوالى التركى لم يطمئن إليه وأودعه السجن، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق فى المناطق المجاورة لمدينة طرابلس وخاصة ضد أهالى الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب، وأظهروا رغبتهم فى التمسك بالحكم الذاتى، وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره فى استسلام بقية المناطق المجاورة لطرابلس.

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكرى صارم تمثل فى سياسة القوة التى سلكتها الحكومة العثمانية.

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع سوءا بعد أن انتشر مرض الطاعون فى ليبيا، وارتفع عدد ضحاياه، مما أدى إلى هجرة معظم السكان للبلاد.

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال «رائف باشا» على ترقية شئون البلاد. أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنة فلا يكاد أحدهم يستقر فى ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره؛ لذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ ممكنة من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه فى منصبه لن يطول؛ لذلك لم يهتم الولاة بأى عمل جدى فى الولاية، كما صرفوا وقتهم فى إخماد الثورات التى اتسع نطاقها، فقد تزعم «عثمان أغا»

الثورة فى «مصراتة» وأكد «عبد الجليل سيف النصر» سيطرته على فزان، وقاد «غومة المحمودى» الثورة ضد الحكومة فى «يفرن» بالجبل الغربى، هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم.

وقد نجحت هذه الثورات فى إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار إلى البلاد، وزاد الطين بلة تعرض البلاد للمجاعات بسبب قلة الأمطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الإتاوات من السفن الأوروبية.

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل فى الإصلاح لم ينقطع، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والإنشاءات العسكرية توضع فى سجل تاريخهم. فلما تولى «على عسكر باشا» (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد، وبناء دار جديدة للحكومة، وعندما تولى «محمد أمين باشا» الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سياسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان، وقد هيأت مدة حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التى شملت القضاء والإدارة والشئون المالية فتم تنظيم الأقسام الإدارية فى الولاية وأنشئت المجالس المحلية، ووضعت السجلات المتنوعة، وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها، ولعل من أبرز أعماله المتنوعة إنشاء المستشفى العسكرى بطرابلس.

وفى ولاية أحمد عزت باشا (١٨٤٨) التى تميزت بالهدوء فى بدايتها تم عمل إحصاء للسكان، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية، وقد صرف هذا الوالى جهده إلى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف فى وجه السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى توطيد أطماعها فى الشمال الأفريقى.

وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوروبى والوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية.

وفى ولاية «محمود نديم باشا» (١٨٦٠) والتى بلغت سبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة، فقد اهتم هذا الوالى بتطوير الأوضاع العامة فى البلاد، وتطوير مزروعاتها ومصنوعاتها. كما قام بعمل تنظيم إدارى جديد لليبيا فأنشأ المحاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالى، ففى عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتجارية، وفى عهده أنشئت أول مطبعة فى طرابلس، وصدرت أول جريدة بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية، وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسواق ودور التخزين وفى عهده تم فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجهة، وتسهيلا لسبل الاتصال بين سكان



المدينة والقرى المجاورة. كما اهتم الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى فى ليلة عاشوراء من قيام بعض الرعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به فى أزقة وحوارى البلاد.

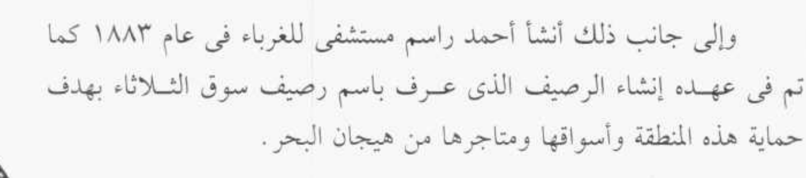
وما من شك فى أن طرابلس نعمت فى عهد هذا الوالى بالكثير من الهدوء والاطمئنان، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من رغبة فى تطويرها والنهوض بها.

وفى عهد «الفريق على رضا» (١٨٦٧) الذى جمع فى شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالى تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعابر فى داخل المدن وخارجها وتنظيم شئون البريد، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلى الخمس ثم إلى الحدود التونسية، وتشجيع حفر الآبار الارتوازية، وربط الأودية ومدها بالترع والسواقى، وتأسيس سوق العزيزية والحديقة العمومية وإنشاء الساعة التى لا تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس، والتى تعد من المعالم الأثرية الباقية التى توضح قدرة هذا الوالى على تجميل هذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظى بتعاطف وإعجاب الأهالى.

وفى ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير، فازداد النمو فى مبانيها، وتم تبليط شوارعها، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالى على الماء.

طرابلس فى العهد العثمانى





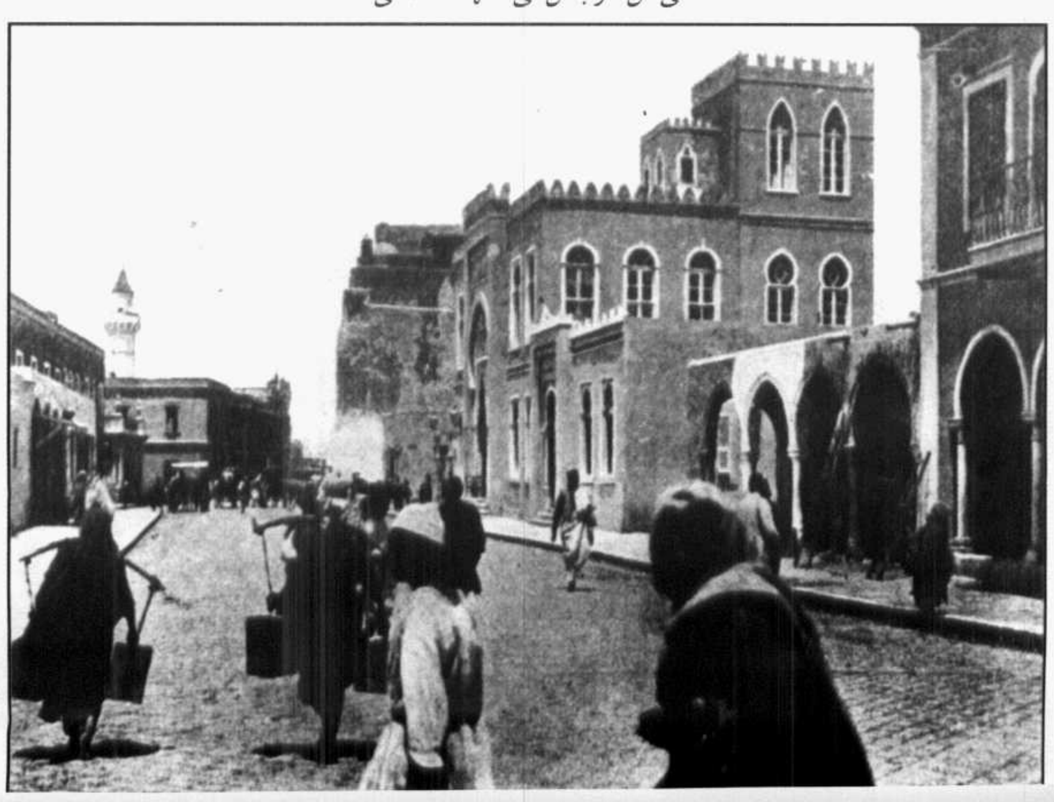
وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء فى عام ١٨٨٣ كما تم فى عهـده إنشاء الرصيف الذى عـرف باسم رصيف سوق الثـلاثاء بهدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر.

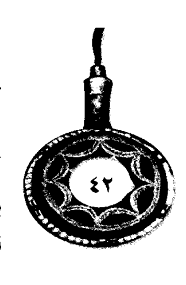
لقد كـان الأثر العمـرانى الذى خلفه أحـمد راسم باشـا على طرابلس واضحا، ولا شك فى أن أعماله العمـرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجمـيلها تضعـه ضمن الولاة الذين تركوا أثرا فى الحـياة العامة بـليبيا، فـقد نعمت البلاد فى عهده بنوع من الاستقرار وشهـدت تطورا واضحا فى كافة مرافقها، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية.

وجاء بعد راسم باشا، نامق باشـا الذى استمر فى الاهتمام بالتجهـيزات العسكرية، ووجد صعوبة فى فـرض التجنيد الإجبارى، ومن الإنشـاءات الهامة التى تمت فى عهده تأسـيس مدرسة الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه.

وفى عـهد الوالى حـافظ باشـا تم العمل على تنظيـم الإدارة، وعلى الرغم من ذلك فقـد تعاقب على حكم ليبيا مجموعـة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقصرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم.

حى من طرابلس فى العهد العثمانى





ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء انتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالآستانة، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التتريك التى كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم.

وهكذا لم يرتبط الحكم العثمانى فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة وخاصة أن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدى دافعيها. يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة، وفضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التى قامت فيها الزوايا السنوسية وخصوصا فى فترة العهد العثمانى الثانى. فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين العثمانيين والأهالى. فقد قبل الأهالى الزعامة السنوسية كممثلة لهم وناطقة باسمهم. واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه، فقد جاء أول اعتراف رسمى بالسنوسية فى فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول (١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم، وأعفى زواياهم من الضرائب، كما ثبت السلطان عبد العزيز (١٨٦١) هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية «حمى» يمكن للناس أن تحتمى فيه، وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقات المودة مع السنوسيين. وفى نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الأهالى فى المناطق النائية، كما اعترفت بفكرة الخلافة العثمانية والدعاء للسلطان العثمانى على منابر المساجد يوم الجمعة على أساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة؛ لذلك فإنه يحق لآل عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، وبذلك يصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين.

ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين، وزاد أتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينية وزمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية. واستمرت الأمور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميد الشكوك فى نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوروبيين ضدهم لدرجة أصدرت معها الدولة

العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على ما تنتجه أراضى الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك.

وعلى أى حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالها تطلعت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادى والثقافى فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما فى كل من طرابلس وبرقة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذى لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية، بل نشط فى عمليات الرهن والتسليف مع الأهالى، وإقراض الأموال لأصحاب الأراضى الزراعية ثم سلبها منهم، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية فى ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية فى ليبيا ومسح أراضيها، هذا فى الوقت الذى لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالى فى ليبيا.

ولكى تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك فى ليبيا، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد، والنهوض بها. وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها فى ليبيا هى:

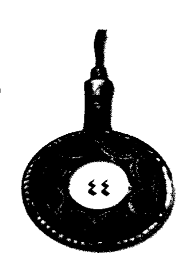
١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازى ودرنة.

٢- تشكيل قوات عسكرية فى هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين.

٣- أن تكون إدارة الجمارك فى ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين.

٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها.

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا، وتجاهل رغائبها فيها، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية فى هذه البلاد، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالى على الرعايا الإيطاليين بخاصة، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون على حياتهم، ويشرعون فى الهجرة من هذه البلاد. ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية اضطرت حرصا على مصالحها وشرفها إلى احتلال طرابلس وبنغازى احتلالا عسكريا، وقد صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالى فى الآستانة بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الإنذار فى مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى احتلال ليبيا.



وعند تحليلنا لهــذا الإنذار نجده يثيــر الدهشة والاستغــراب ولانجد سببـا واحدا معقولا من الأسباب التى وردت فيــه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العــدائى. فهل من المنطقى أن تهــدد إيطاليا باحــتلال المدن الليــبيــة لأن الدولة العثمــانية لم تعمل على النهوض بهذه البــلاد. وهل من المنطق أن تهدد إيطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات اقتصادية، وتناقض حقوقها فى هذه البلاد؟

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء أحوالها فى تحديها والافتراء عليها، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالى إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير فى مشاكل بلاده الداخلية.

وكان رد الدولة العــثمانــية على هذا الإنذار ضعــيفا، حــيث حاولت التنصل من اتهــامات إيطاليا لهــا، وأظهرت حسن نيتهــا تجاه الإيطاليين ومشــروعاتهم الاقتصــادية فى طرابلس وبرقة، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السلمية مقابل أن تعطى إيطاليا مركزا ممتازا فى ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوروبية تطلب منها التوسط فى الأمر، ولكن إيطاليا رفضت كل هذه المحاولات، وأعلنت الحرب على الدولة العثمــانية فى ٢٩ سبتمــبر ١٩١١، وبدأت فى محاصرة طرابــلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غيــر متكافئ حدث خلاله مجزرة بشرية تمثلت فيها أفــظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احــتلال الموانى والنقط الساحليــة فى ليبيا فــى أكتوبر ١٩١١، أما باقى المناطق فــقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التى وقفت للإيطاليين بالمرصاد.

وقد واجــه المجاهدون الجيش الإيطالى فى مــعارك طاحنة استبــسلوا فيهــا ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكبر الأثر فى حسم المعركة لصالح إيطاليا.

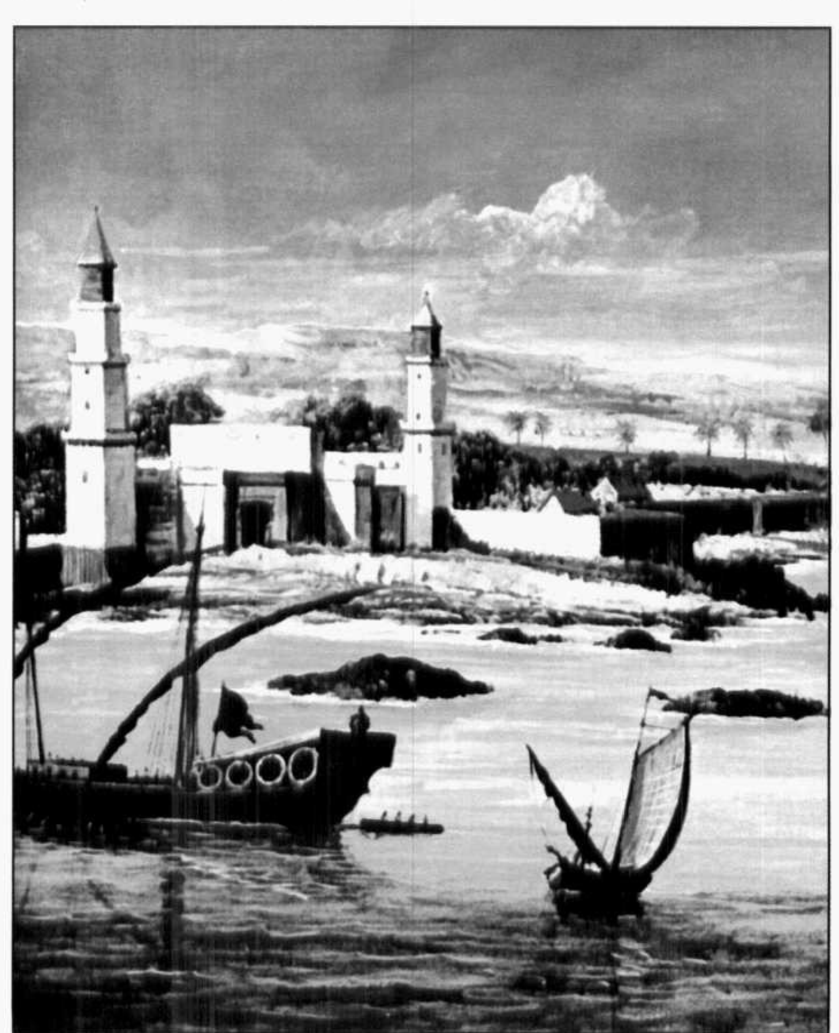
وبعد أن عجزت الدولة العــثمانية عن مد يد العون الفعليــة إلى الأهالى وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف اضطرت إلى عــقد معاهدة «أوشى لوزان» مع إيطاليا والتى انسحــبت بمقتضاها من ليــبيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركــتها لقمــة سائغة للإيطاليين، كــما تركت أهلها يقاومــون الجيش الإيطالى بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة.

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العــثمانية من ليبيا تاركة الزعامــة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصر العثمانى وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الإيطالى، ويبقى لدينا فى هذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى ولأحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية فى ظله.

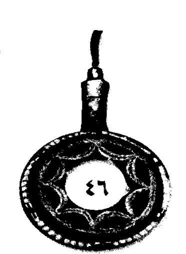


١- نظام الحكم العثمانى فى ليبيا:

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية، وبعدها عن مقر السلطة أكبر الأثر فى رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الوالى مخافة أن يستقل بالبلاد، مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثمانى أية سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليها حركة عمرانية. حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعاظمت بعض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية؛ فقد اهتمت الدولة العثمانية بإقليم بطرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا، كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق



ساحل طرابلس فى عهد قره مانلى التركى



الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية فى الداخل، وأدى إلى إضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة فى كثير من الأحيان، وانحدار هيبة الوالى، وكثرة الفتن والثورات وخاصة فى مناطق القبائل. لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى «الكاهية» و«خازندار» يختص بشئون الخزينة، إضافة إلى الكتبة، والمستشارين، وقاضى الجند، والموظفين الإداريين ووكيل الجباية والخراج، وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسون من إستنبول.

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين: الأول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان، والثانى بنغازى ويضم المنطقة الشرقية. وقد مرت طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون سلطة الحكومة قوية تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها، وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية، وتصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام. ومع كل ذلك فقد نظر الأهالى للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا.

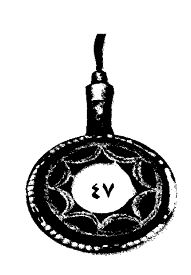
وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة، والطرق المتفقة مع الشريعة الإسلامية، فطبقت ضريبة العشر، والخراج، والمكوس الجمركية، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على العقارات والدواب.

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا فى اقتصاديات البلاد، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية، ويوزعون ما يغنمونه منها بعد اقتطاع الخمس للحكومة.

٢- مظاهر الحياة الاقتصادية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى:

أ- الزراعة

انقسمت الفلاحة فى ليبيا إلى قسمين: قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضى المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر، وكان إنتاجهم يزيد عن حاجات الأهالى، ويصدر الفائض منه إلى موانى إسبانيا عن طريق البحر. وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون.



أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغيبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة.

ب- التجارة الداخلية

كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها:

- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة، وهو على شكل أربعة صفوف، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلئ والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية.

- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات.

- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة.

- سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم فى متاجرهم الصغيرة به، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشترى فيها معظم ما يريد. ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوروبية الصنع.

- سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشتهم حيث يجرى المزاد العلنى، وفيه يجلس اليهود والمالطيون لخياطة وبيع الأنسجة المختلفة.

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقالة والملابس النسائية والحريرية والأوانى النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية، هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذى كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وعقد الصفقات.

جـ - التجارة الخارجية:

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوروبية وخاصة إيطاليا، كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق، والعائدة من الغرب إلى الشرق. وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية، كما كانت إقامتها عدة أيام



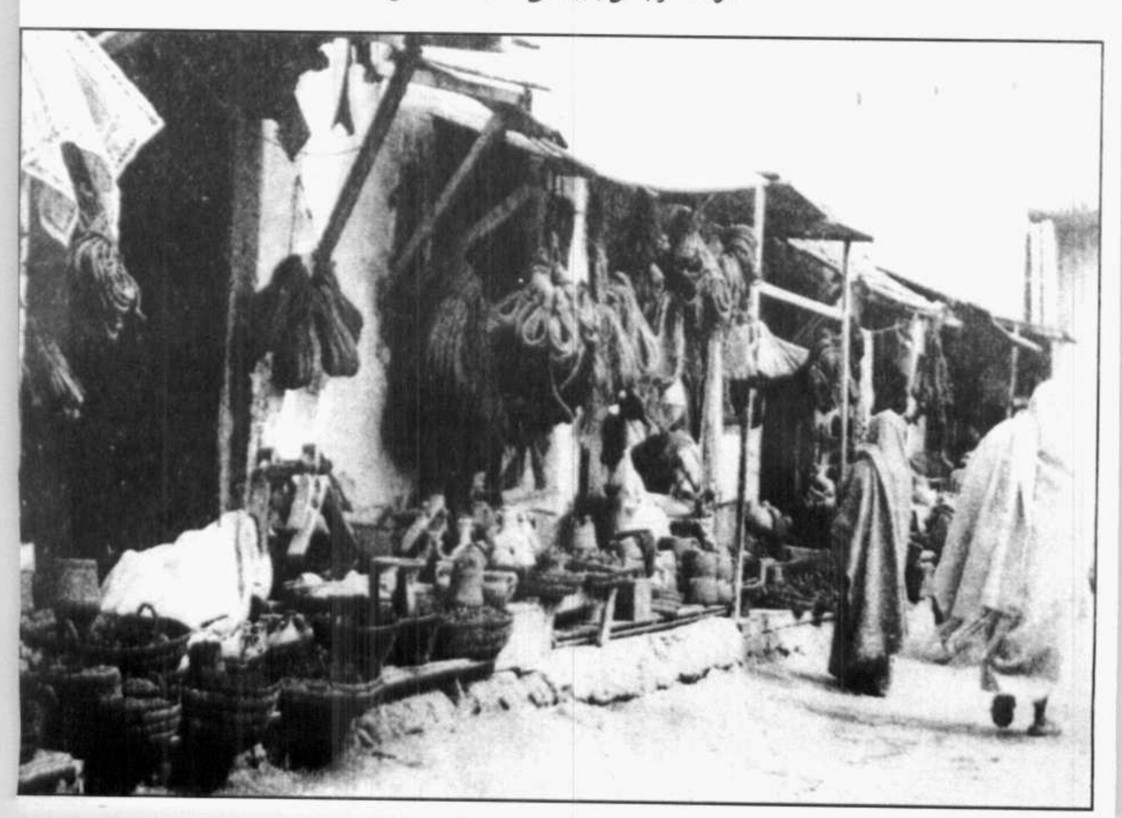
بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوافرة فى أسواق طرابلس، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوروبا فى عهد أسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس، إذ إن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات.

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال تومبكتو وبورنو، فقد كان يأتى منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة، والفواكه المجففة وبعض التوابل، هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام.

د - الصناعة:

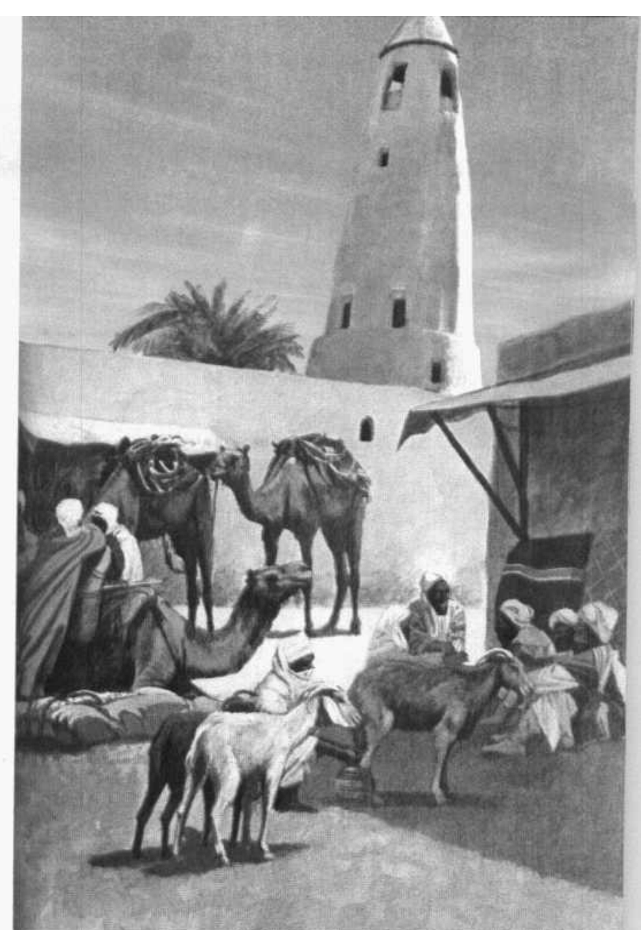
مارس السكان الصناعة التى كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت فى ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والدباغة وكانت لها أسواقها الرائجة داخليا وخارجيا.

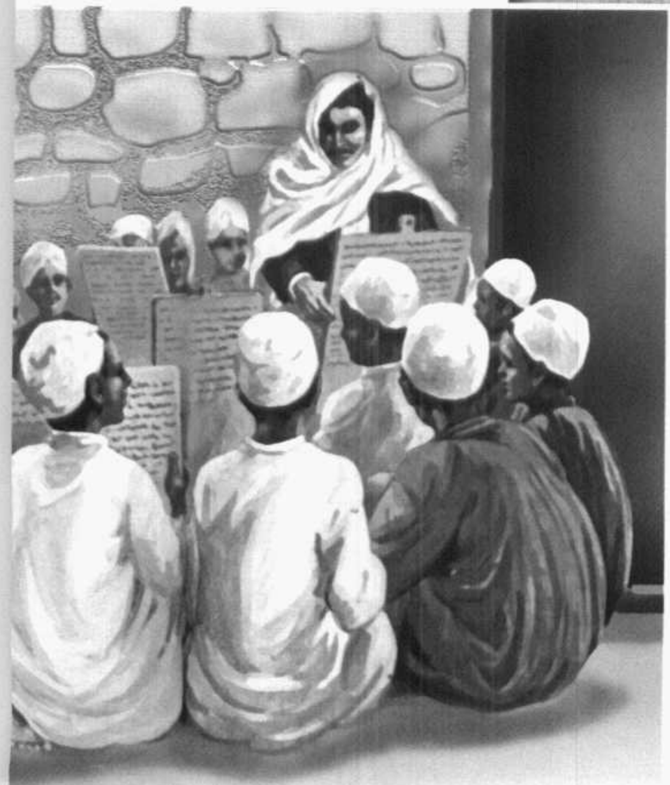
أسواق طرابلس بليبيا فى العهد العثمانى





القوافل التجارية فى أسواق ليبيا





الكُتّاب وأحد الدروس الدينية

٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى:

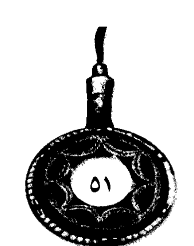
من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة فى المرحلة المعروفة باسم العهد العثمانى الأول وهى المرحلة التى تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأى نوع من أنواع النشاط الثقافى والعلمى خلال هذه الفترة، وخاصة أن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئة من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة، وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى انحدار المستوى الفكرى بين الأهالى الذين سيطرت عليهم الخرافات، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد فى كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق، ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دورها فى نشر التعليم الدينى، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره مانلى مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس فى إنعاش الحياة العلمية فى البلاد.

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثمانى الثانى فتنحصر فى جهود أحمد باشا راسم فى تطوير حركة التعليم والوقوف فى وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التى كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية وصبغها بثقافتها.

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام فى طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه أبى على الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسى، وأحمد بن عبد الحميد اليربوعى، كما تنحصر فى جهود نامق باشا الذى تأسست مدرسة الفنون والصنائع فى عهده، وصدرت فى عهده جريدة الترقى لصاحبها «الشيخ محمد البوصيرى» ومجلة الفنون لصاحبها «داود أفندى» وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التى كانت سائدة بين المثقفين فى ذلك الوقت، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التى تشغلهم وأسهمت بشكل واضح فى تطوير الحركة الثقافية فى البلاد.

وفى جهود الوالى حافظ باشا الذى شهد تطور التعليم فى عهده دفعة كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين، ومدرستين كبيرتين، ومدرسة للبنات، وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية فى بعض المناطق الليبية.

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاة العثمانيين بل قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية عالية، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين، وأخرى للبنات، وروضة أطفال للبنين وأخرى للبنات، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها.



وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

١- أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية فى ليبيا ولم يهتموا بالدواخل، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولم تلق من الحكومة العثمانية اهتماما واضحا.

٢- أن أغلب مدة الولاة العثمانيين فى ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالى.

٣- كثرة الحروب الداخلية وخاصة فى عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة وخاصة مرض الطاعون، وعدم نجاح الحكومة فى السيطرة عليه، وخاصة أن اهتمامها بالنواحى الصحية كان ضئيلا.

٤- الإجحاف فى فرض الضرائب على الأهالى، وسوء طريقة تحصيلها منهم.

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم فى ليبيا وخاصة أن أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين وخاصة أن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم، ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايات فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية وخاصة أن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية، للمواطنين العرب المسلمين فشاركوهم فى الاحتفالات الدينية، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية.



الفصل الثالث
تونس تحت الحكم العثمانى

كانت تونس الخضراء مقرا للولاة العرب فى المغرب، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين.

وبعد أن أدار الفلك دورته، وكشر الزمن عن أنيابه تنازع تونس الفوضى، وأصبح الضعف والتفكك السياسى إحدى سماتها البارزة وخاصة بعد اعتلاء «محمد بن الحسن الحفصى» العرش فى عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته، وفى أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها.

وبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين كان من الضرورى أن تكون وجهة الأسطول العثمانى تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين وخاصة أن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة وطرابلس ضد المسلمين.

مسجد سيدى عقبة بن نافع بالقيروان





ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمـان القانونى أنه من أجل تأمين قواعد قواته فى البحر المتوسط، وترسيخ وجودها فى الجزائر لابد من السيطرة على تونس، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين فى تونس قد لجأ إلى الآستانة طالبـا المساندة العثمانيـة لاستعادة عرشـه. وبعد أن هيأ السلطان الأمـر لذلك استـدعى «خيـر الدين بربروسا» إليـه فى إسـتـانبول فى عـام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، وعهد إليه بإعداد العدة لفـتح تونس واسترجاعها من أيدى الإسبان، وتحويلها إلى ولاية عثمانيـة قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس فى الاستـيلاء عليهـا. وفى أعقاب حصـول بربروسا على الدعم الكامل والإمـدادات اللازمة من السلطان توجـه بالأسطول العثـمانى المؤلف مـن ثمانين سـفينة وثمـانية آلاف جندى إلى منطـقة «بنزرت» فى غـرب تونس حيث حظى هناك باسـتقـبال طيب من الأهالى، ومن «بنـزرت» توجه الأسطول العثمانى إلى منطقة «حلـق الوادى» فى عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ودخل «خير الدين» بقواته إلى العاصمة التونسية التى تركها حاكمها «الحسن الحفصى» وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء. وفى أعقـاب ذلك أعلن «خيـر الدين» نهـاية حكم الحفـصيين، كـما أعلن تبـعيـة تونس للدولة العثمانية، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثمانى مما قلب موازين الأمور، وزاد من حدة الصراع الحربى بين العـثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركـون أهمية تونس العسكرية، وتحكم موانيها فى المواصلات البحرية فى منطقة البـحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، وقربها من إيطاليا، ومجاورتها لجزيرة مالطة. ومع كل ذلك فـإن الأمر لم يستـقـر لخير الدين تمامـا فسرعان مـا واجه العديد من المشاكل من أهالى تونس الذين تمردوا عليه نتيـجة للتنظيمات التى أدخلهـا فى بلادهم. ومـن أجل حـفظ النظام والأمن وزع «خير الدين» قواتـه فى كافة أنحاء البلاد. وبينمـا كان «خيـر الدين» يوطد سلطانه فى تونس لجـأ «الحسن الحـفصى» إلى «شـارل الخامس» ملك إسـبانيا طالبـا العون ضد «خـير الدين» والعـثمـانيين. وقـد استـجاب «شـارل الخـامس» لمساندة «الحـسن الحفـصى»، وكلف قواته بوضع الخطط الـعسكرية للاستـيلاء على تونس واستعادة التـحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط.



خير الدين بربروسا

وفى ذى القعدة ٩٤١هـ/ مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة، ٢٦٥٠٠ رجل، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها «الحسن الحفصى» بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التى واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس، مما اضطر «خير الدين» إلى الانسحاب إلى الجزائر.

وبعد أن دخل «الحسن الحفصى» مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلب والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام، وفى أعقاب ذلك وقع «الحسن الحفصى» مع «شارل الخامس» معاهدة تخلى خلالها عن «حلق الوادى» و«قرطاجنة» و«مدن عنابة» و«بنزرت» و«المهدية» للإسبان، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضييق.

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة، وتولى «الحسن الحفصى» حكمها باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية.

وقد رد «خير الدين» على ذلك بغارة مفاجئة على «جزر البليار» واستولى منها على ستة آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر.

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطؤهم مع «الإمبراطور شارل الخامس» واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطر بعدها «الحسن الحفصى» إلى الرحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوروبا، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو «درغوث باشا» واستطاع أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال أفريقية، واستولى على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيروان واحتلها، وأقام فيها حامية فى عام ١٥٥٨م، ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم من الحفصيين.

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظرا لأهميتها فى الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس، فأرسل أسطولا ضخما يحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة «مصطفى باشا» لمحاصرة الجزيرة، ولكنه لم يتمكن من دخولها. فبعد حصار أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، وارتدوا على أعقابهم.

واستمرت الأحوال فى تونس كما هى حتى تولى «علج على» أريكة الحكم فى الجزائر فقاد حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإسبان نجح خلالها فى هزيمة القوات الحفصية ودخول تونس فى نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثمانى.



ونظراً لأهمية موقع تونس عمل «علج على» على تقوية حاميتها قبل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم «أوجاق باشى» كما تم تعيين القائد «رمضان» حاكما عاما لتونس، وبعدها غادر «علج على» تونس متوجها إلى الجزائر فى رمضان ٩٧٩هـ/ ١٥٧٠م.

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م التى هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم سارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت فى ذلك وخاصة أن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية، كما استباح الإسبان «جامع الزيتونة» ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به. ونتيجة لذلك أرسلت الآستانة أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونة بالجند، لاستعادة تونس وإحياء روح الجهاد بين أهلها.

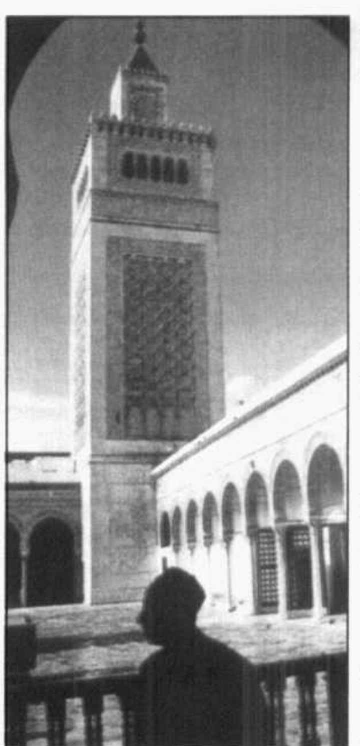
وقد تمكن «سنان باشا» والقبطان «علج على» من استردادها فى عام ١٥٧٤م، وإبادة الحامية الإسبانية هناك، وإنهاء حكم الحفصيين المتعاونين معهم. وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحرير تونس من الإسبان، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية.

وقبل أن يغادر «سنان باشا» تونس عمل على تنظيم شئونها؛ وكان من أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك أربعة آلاف جندى إنكشارى ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد، كما كون فيها إدارة كانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها، وأعضاؤها من المجلس الذى يرأسه الباشا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشارى مكون من كبار الضباط والمسئولين، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباى، وبعد أن نظم «سنان باشا» أمور تونس غادرها إلى إستنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم «عثمان باى» الذى حاول النهوض بالبلاد و«يوسف باى» الذى نهض بالنواحى التعليمية.

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا، ويتوارثها أبناؤهم أحيانا، وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجة عن التنافس بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتى تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين.

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن «حسين بن على» أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالى وقواد الجند. وقد

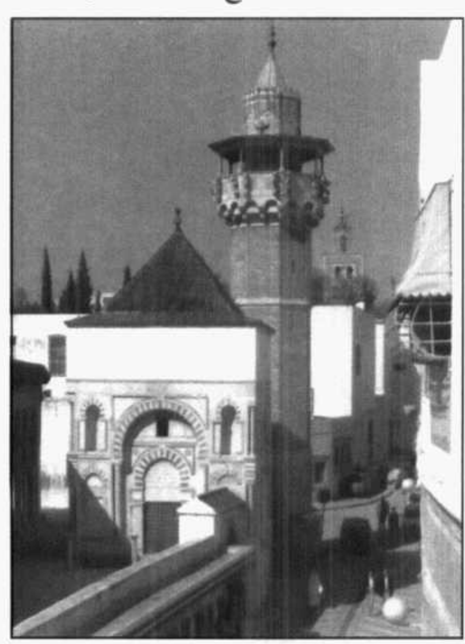
استطاع «حسين بن على» أن يعيد هيبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبيات المسلحة، وأنشأ جيشا قويا.


جامع الزيتونة بتونس

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان، واكتفى السلطان بالولاء الاسمى وبالدعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه.

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوروبية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية، وأخذ البايات يسيرون فى طريق الإصلاح.

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية، وتراكمت الديون عليها. وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر «أحمد باى» ١٨٣٧-١٨٥٥ أنفق الكثير من الأموال فى بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات، وفى عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى فى نهاية الأمر إلى التوسع فى الاستدانة، ووقوع تونس فريسة فى أيدى الدول الأوروبية وإقحام الأجانب فى شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التى أرادها الباى، وإجبارها على إصدار ما يسمى «بعهد الأمان» الذى أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية فى تونس. حقيقة أن هذا العهد شمل فى نصوصه العديد من المنافع، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه.


مسجد يوسف باى



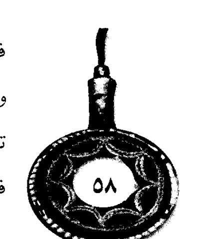
وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها فى منع قيام نظام فى تونس يهدد احتلالها للجزائر. وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها. فقد رغب المستشار الألمانى «بسمارك» فى إبعاد فرنسا عن التفكير فى هزيمتها فى الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوروبا.

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسى فى تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا وخاصة أن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين وخاصة أن هناك معاهدة بين إيطاليا والباى عقدت فى عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا.

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها امتداد طبيعى للجزائر، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها. فأرسلت قواتها فى مايو ١٨٨١ إلى قرب العاصمة التونسية، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام، ولكنها ما كادت تصل إلى العاصمة حتى أجبرت الباى على عقد «معاهدة باردو» فى ١٢ مايو ١٨٨١ والتى أعلن الفرنسيون



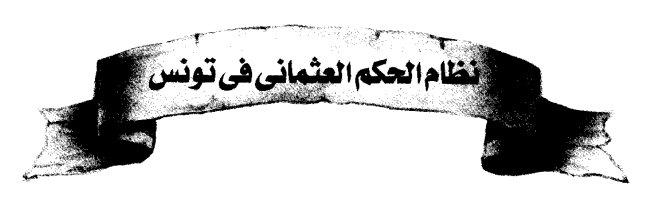
سوق المنسوجات بتونس



فى أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة على الأمن ورعاية حسن الجوار. وإلى جانب ذلك فقد كبلت فرنسا تونس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسى فى تونس هو صاحب الكلمة العليا، وتولت فرنسا تمثيل تونس، ورعاية مصالحها فى الخارج.

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافق فى تونس، فانتشر الموظفون الفرنسيون فى المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثير من الأراضى الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين، وإلى جانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربى، وبحضارتهم الإسلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية. ونتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية فى تونس فى شكل حركة إسلامية، وكانت «مدرسة الزيتونة» معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية، كما بقى مسجدها حارسا للتراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا.

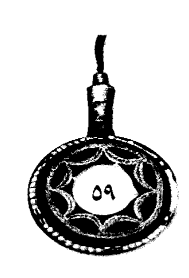
وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التى كان يرددها السلطان العثمانى «عبد الحميد» ملتقى أفئدة التونسيين، ثم تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونس والاعتراف باستقلالها فى ١٧ مايو ١٩٥٦.



نظام الحكم العثمانى فى تونس

تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد «سنان باشا» عقب فتحها عام ١٥٧٤م، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشارى. فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندى إنكشارى فى تونس لحمايتها، وأسند حكمها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء. وكان «حيدر باشا» أول أمير لأمراء تونس وكان يسانده ديوان للمشورة. كما استحدث «سنان باشا» منصب أمير اللوء بهدف حفظ الأمن، وعين قاضيا للأحكام الشرعية، كما عين جابيا يلقب بالباى.

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاة عسكريين. ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فسرعان ما سيطر الجند على الأمور، وقاموا



بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء، واستحداث نظام الدايات الذى استمر قائما فى تونس حتى عام ١٦٤٠م، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو «مـراد بك» أن يخضع حكومـة الداى لنفـوذه ويقوم بتـأسيس «الأسـرة المرادية» وأن يحصل على لقب باشا من البـاب العالى. وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن «حسين على» أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة، وتأسيس «الأسرة الحسينية» التى بدأ حكمها فى عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسى لتونس ، ومما يذكر لهـذه الأسرة أنهـا حافظت على الـطابع العثـمانى فى الحكـم، من حيث الاعـتمـاد على طبقـة الإنكشـارية، واتخاذ المذهب الحنفى مـذهبا رسـميـا بدلا من المذهب المالكى الذى يتـبعه مـعظم الأهالى.

وعن موارد الدخل فى تونس وطرق الصرف منها، فلم تفـرض الدولة العثمانية على تونس أموالا تدفع لخزينتهـا كما كان يحدث مع باقى الولايات، بل كان كل ما يفـرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير فى الجزائر.

وكانت الضرائب التى تجـبى من الأهالى تستخدم فى الصـرف على مصالح الولاية، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات، وتجهيز الحملات.

مظاهر الحياة الاقتصادية فى تونس خلال الحكم العثمانى:

تمثلت هذه الحياة فيـما يقوم به السكان من أعمال الزراعة والصناعة والتـجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكـثر من غيرها من الولايات الأخرى وخاصة أن طبيعتهـا المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد سـاعدت على ذلك. وقد ارتبطت الزراعة فى تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها؛ فكان هناك الأراضى الخصبة المحيطة بالمدن، وكان هناك الأراضى التى تصادر من القبائل وتمنح لكبـار الموظفين، كما كان هناك الأراضى التابعة لقـبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعى والرعوى.

وكانت الحبوب والخـضر والفواكه أهم منتجات تونس وقد سـاهمت هذه المحاصيل بنصيب كبـير فى حركة الـتجارة الداخلية والخـارجية. فـقد نشطت حركـة التجارة بين الولايات المغـربية وبعضها البعض.

وبالنسـبة للصناعـة فقـد تميزت تونس بصناعـة المنسوجـات الحريرية والنقش علـى الرخام والجبس.



مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى تونس خلال الحكم العثمانى:

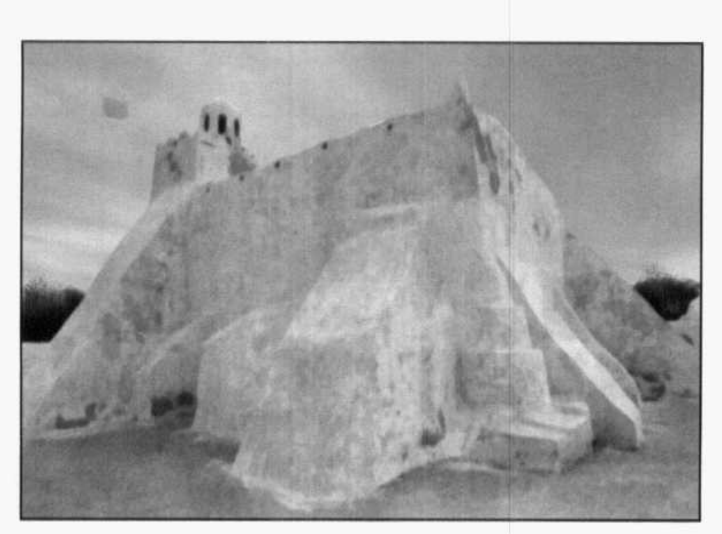
شهدت تونس خلال العصر العثمانى نفس المظاهر التعليمية والثقافية التى كانت موجودة قبله، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنة النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونة اليد الطولى فى ذلك. كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى.

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية.

وكان يطلق على الكتاب فى المناطق الحضرية كلمة «مسيد» وهى تحريف لكلمة مسجد، وكان يوجد ذلك «المسيد» قرب الجامع وأحيانا يكون جزءا منه. ويوجد كل من المسجد والمسيد فى كل حى عند نهاية الشارع وتقاطع الطرق، ويكون على مكان مرتفع نظرا لرفعة شأن القرآن الذى يتعلمه التلاميذ فيه.

وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون فى تونس العديد من المدارس التى ساعدت على إحياء المذهب المالكى.

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة «الشيخ محمد بن أبى الفضل خروف الأنصارى التونسى» (ت٩٦٦هـ/١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب جامع الزيتونة فى تونس (ت٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م).



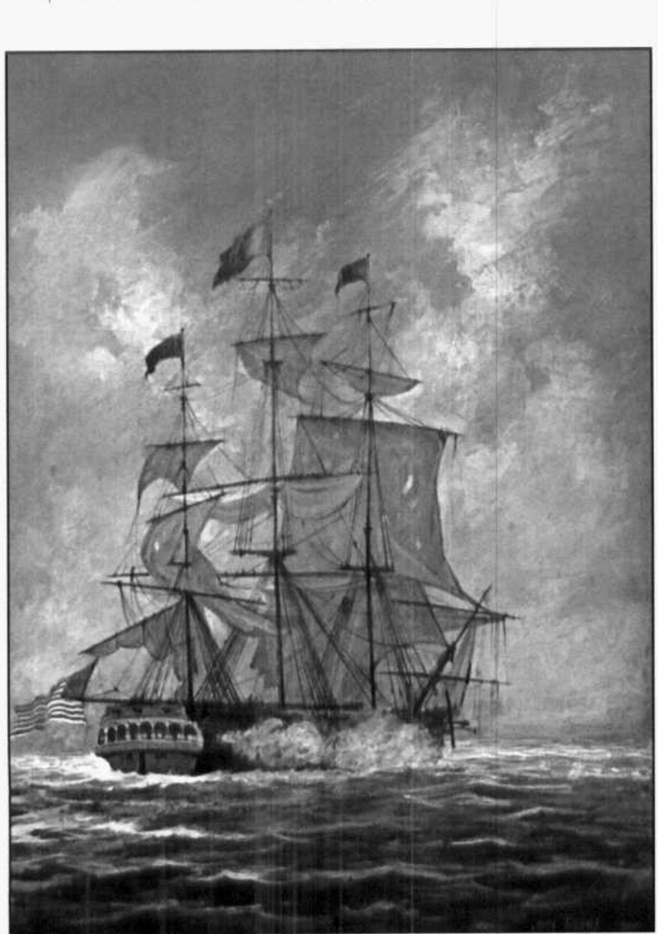
أحد المساجد الصوفية القديمة - تونس



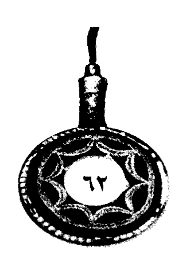
الفصل الرابع
العثمانيون ومراكش

إن مراكش ذلك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر.

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين وخاصة أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق. فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية أقاليم العالم العربى، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة. وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك.



السفينة الأمريكية



فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس «أبو حسون الوطاسى» مساعدة السلطان العثمانى «سليمان القانونى» الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإسبانى «شارل الخامس».

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثمانى بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع «أبى حسون الوطاسى». وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس فى عام ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية» على مراكش تحت السيادة العثمانية، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع «محمد المهدى السعدى» استرداد فاس من العثمانيين.

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانونى بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش، وقد عهدت قيادة هذه الحملة إلى «صالح ريس» وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك وخاصة أن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامى لتصفية الجيوب الصليبية فى مراكش وفى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعا، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافة السلطان العثمانى على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم، وبأن الشرافة فى مراكش يجب أن تكون لهم وخاصة أنهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول ﷺ وازداد تطلع الباب العالى إلى ضم المغرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة «عبد الله الغالب بالله السعدى» (فى رمضان ٩٨١هـ/ يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص، ولجوء أعداء العثمانيين فى المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوروبا الغربية قد حال دون ذلك.

وبعد معركة وادى المخازن فى ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨ التى انتصر فيها «عبد الملك السعدى» على القوات الإسبانية اعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر فى المغرب، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود، وتبادل الطرفان الرسائل التى تدل على حسن علاقات الجوار بينهما. وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون. فقد اتبع «أحمد المنصور» الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجهاد الإسلامى لمواجهة

تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية، وذلك بنشر الإسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر. وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الاسمى لسلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان.

وقد حاول «أحمد المنصور» فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المعادية أن يضرب القوى الأوروبية ببعضها فحاول التحالف مع إنجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة.

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن «المهدية» و«العرانش» و«أصيلة» أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء «طنجة» ومدينة «مزاغان» من يد البرتغاليين. وبالنسبة للدول الأوروبية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكام المغرب معهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله ـ الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م ـ مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦، كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء.

وانتهى الأمر بقيام إنجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فى عام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحة فى البحر المتوسط، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف. وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء على السفن المغربية، والاستيلاء على مدينة تطوان. ومنذ ذلك الوقت تزايدت الأطماع الأوروبية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢.



الخاتمة

مما سبق يتضح أن الحكم العثمانى لأقطار شـمال أفريقيا الثلاثة الجزائر - طرابلس الغرب - تونس لم يكن كله إيجابيا ولا كان كله سلبيا. فقد استفادت هذه البلاد من الحكم العثمانى خلال مواجهتها للخطر الإسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة، واستـفادت من تأخير الغـزو الاستعمارى الأوروبى لهـا عندما كانت الدولة العثـمانية

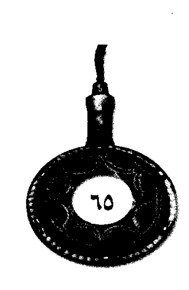


معركة بحرية





قطعة فخارية من العهد العثمانى - ليبيا

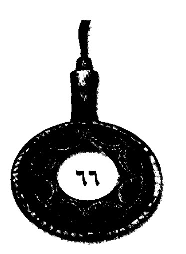


قوية، كما استفادت من بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى النفوس وخاصة أن العثمانيين أبقوا أوضاع هذه البلاد كما هى ولم يقوموا بتتريكها، كما حافظوا على النظام الاجتماعى بها، بينما لم تستفد هذه البلاد حضاريا من الحكم العثمانى وخاصة أن العثمانيين لم يكن لديهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى الولايات العربية التى كانت تتمتع بحضارة تفوق ما لدى العثمانيين من حضارة، وبالنسبة لضعف نظام الإدارة فى هذه البلاد خلال الحكم العثمانى فقد كان لبعد المسافة التى تفصل بين تلك الولايات وعاصمة الدولة أكبر الأثر فى عدم إحكام الدولة لقبضتها الإدارية على هذه البلاد، وفى عدم تمكنها من حسم الصراع الذى كان كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسر الحاكمة بل كانت تقوم بتسكين الأمور بدلا من حسمها.

وبالرغم من ذلك فقد اعتبر أهل شمال أفريقيا الدولة العثمانية بمثابة الإنقاذ الإلهى الذى جاء لمساندتهم فى مجابهة الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بالإساءة لدينهم ووطنهم.

وبالنسبة لحركة الجهاد البحرى الإسلامى فقد أوضحت هذه الدراسة أنها لم تكن حركة قرصنة كما يدعى البعض وخاصة أنها كانت تهدف للدفاع عن النفس ضد قوى صليبية هى فى حالة حرب معها، وأنها كانت ردا على ما فعله الإسبان ضد مسلمى الأندلس، وردا على ما فعله البرتغاليون ضد البحرية الإسلامية فى أعقاب معركة ديو البحرية ١٥٠٩م والذين أثبتوا خلالها روحهم العدائية لكل ما هو مسلم، ومن هذا المنطلق كان لابد لأقطار المغرب العربى من اتخاذ الحذر والحيطة، وإعلان الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام خاصة الإسبان، والبرتغاليين، وفرسان القديس يوحنا، وكان لابد من دخول العثمانيين إلى هذه الحلبة لإعادة عملية التوازن بين المسلمين والصليبيين. يضاف إلى ذلك أن الوجود العثمانى فى ولايات شمال أفريقيا لم يكن وجودا عسكريا فحسب بل ترك ملامحه فى نظم الإدارة وأنماط حياة السكان وغيرها.

فيما يلى أسماء بعض المصادر والمراجع التى استعنا بها فى وضع هذا الكتاب. نذكرها ليفيد منها من يرغب فى متابعة هذه الدراسة بشىء من التفصيل.

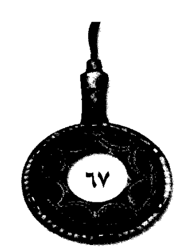




أولا: المصادر والمراجع العربية:

- **أحمد صدقى الدجانى**: ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالى أو طرابلس الغرب فى أواخر الحكم العثمانى الثانى ١٨٨٢-١٩١١ القاهرة، ١٩٧١.
- **أحمد عزت عبد الكريم**: دراسات فى تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٠.
- **أرجمند كوران**: العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر - ترجمة عبد الجليل التميمى - تونس، ١٩٧٤.
- **خليفة التليسى**: حكاية مدينة، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ليبيا، طرابلس ١٩٧٤.
- **رأفت الشيخ**: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٩٤.
- **عبد العزيز الشناوى**: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، القاهرة ١٩٨٠.
- **عبد الكريم كريم**: المغرب فى عهد الدولة السعدية، الرباط، ١٩٧٧.
- **عبد المنعم الجميعى**: العثمانيون فى الميزان الإسلامى والعربى، القاهرة، ١٩٩٥.
- **محمد جميل بيهم**: أ- الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب، القاهرة ١٩٥٠.

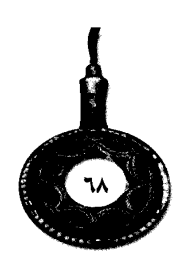
  ب- فلسفة التاريخ العثمانى. كيف نشأت وارتقت الدولة العثمانية، بيروت ١٩٢٥.
- **محمد خير فارس**: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى، بيروت، ١٩٧٩.



- **مرفت سرداح**: الجهاد العثمانى لإنقاذ بلاد المغرب العربى ١٥١٨-١٥٧٨ رسالة ماجستير غير منشورة كلية البنات - جامعة عين شمس، ٢٠٠٠.
- **نيقولا زيادة**: ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال، القاهرة، ١٩٥٨.

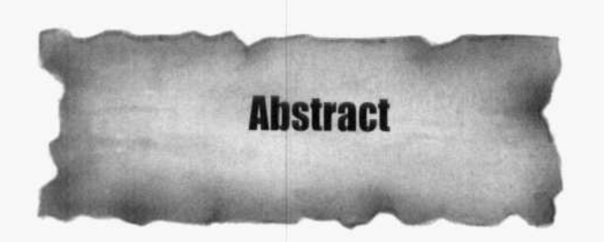
ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية:

- Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. London 1960.
- Show (S): History of the the Ottaman Empire and Modern Turky, London 1977 .





الموضوع	**الصفحة**



This work tackles an important stage in the modern history of Arab Maghreb, starting with the advent of the Ottomans to this area in response to the call of its people in order to confront the Spanish- Crusading hostility in the aftermath of the so- called " Reconquesta".

The Ottomans salvaged the Muslims of Maghreb from the aggression of the European Powers, and thus changed the balance of power to the interest of Its inhabitants. In the meantime Jihad was triggered against the hostile squadrons of European Powers.

This study has made it clear that the maritime warfare was not a kind of piracy, as claimed by western scholars, but was in fact a response to deter the aggressors both on land and sea.

It should be pinpointed that Algeria in particular played a vital role in this war. This role was backed by the provinces of Tripoli and Tunisi, established by the Ottomans.

The presence of Algerians in Maghreb had a large impact on various aspects of life there.

Dr. Abdel Moneim Al Jimaey



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

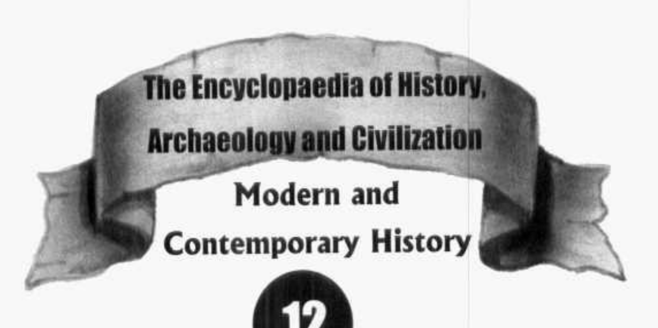
Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt
Tel.: 2752984 Fax: 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





Ottoman State and the Maghreb

Dr. Abdel Moneim Al Jimaey

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 2752794 . Fax : 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com